كتاب آداب السماع والوجد

وهو الكتاب الثامن من ربع العادات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحرق قلوب أوليائه بنار محبته واسترق هممهم وأرواحهم بالشوق إلى لقائه ومشاهدته ووقف أبصارهم وبصائرهم على ملاحظة جمال حضرته حتى اصبحوا من تنسم روح الوصال سكرى وأصبحت قلوبهم من ملاحظة سبحات الجلال والهة حيرى فلم يروا في الكونين شيئا سواه ولم يذكروا في الدارين إلا إياه إن سنحت لأبصارهم صورة عبرت إلى المصور بصائرهم وإن قرعت أسماعهم نغمه سبقت إلى المحبوب سرائرهم وإن ورد عليهم صوت مزعج أو مقلق أو مطرب أو محزن أو مهيج أو مشوق أو مهيج لم يكن انزعاجهم إلا إليه ولا طربهم إلا به ولا قلقهم إلا عليه ولا حزنهم إلا فيه ولا شوقهم إلا إلى ما لديه ولا انبعاثهم إلا له ولا ترددهم إلا حواليه فمنه سماعهم وإليه استماعهم فقد أقفل عن غيره أبصارهم وأسماعهم أولئك الذين اصطفاهم الله لولايته واستخلصهم من بين اصفيائه وخاصته والصلاة على محمد المبعوث برسالته وعلى آله وأصحابه أئمة الحق وقادته وسلم كثيرا أما بعد فإن القلوب والسرائر خزائن الأسرار ومعادن الجواهر وقد طويت فيها جواهرها كما طويت النار في الحديد والحجر كما اخفى الماء تحت التراب والمدر ولا سبيل إلى استثارة خفاياها إلا بقوادح السماع ولا منفذ إلى القلوب إلى من دهليز الاسماع فالنغمات الموزونة المستلذة تخرج ما فيها وتظهر محاسنها أو مساويها فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا ما يحويه كما لا يرشح الإناء إلا بما فيه فالسماع للقلب محك صادق ومعيار ناطق فلا يصل نفس السماع إليه إلا وقد تحرك فيه ما هو الغالب عليه وإذا كانت القلوب بالطباع مطيعة للأسماع حتى أبدت بوارداتها مكامنها وكشفت بها عن مساويها وأظهرت محاسنها وجب شرح القول في السماع والوجد وبيان ما فيهما من الفوائد والآفات وما يستحب فيهما من الآداب والهيئات وما يتطرق إليهما من خلاف العلماء في أنهما من المحظورات أو المباحات ونحن نوضح ذلك في بابين الباب الأول في إباحة السماع الباب الثاني في آداب السماع وآثاره في القلب بالوجد وفي الجوارح بالرقص والزعق وتمزيق الثياب الباب الأول في ذكر اختلاف العلماء في إباحة السماع وكشف الحق فيه بيان أقاويل العلماء والمتصوفة في تحليله وتحريمه اعلم أن السماع هو أول الأمر ويثمر السماع حالة في القلب تسمى الوجد ويثمر الوجد تحريك الأطراف إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب وإما موزونة فتسمى التصفيق والرقص فلنبدأ بحكم السماع وهو الأول وننقل فيه الاقاويل المعربة عن المذاهب فيه ثم نذكر الدليل على إباحته ثم نردفه بالجواب عما تمسك به القائلون بتحريمه فأما نقل المذاهب فقد حكى القاضي أبو الطيب الطبري عن الشافعي ومالك وأبي حنيفة وسفيان وجماعة من العلماء ألفاظا يستدل بها على أنهم رأوا تحريمه وقال الشافعي رحمه الله في كتاب آداب القضاء إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته وقال القاضي أبو الطيب استماعه من المرأة التي ليست بمحرم له لا يجوز عند أصحاب الشافعي رحمه الله بحال سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب وسواء كانت حرة أو مملوكة وقال قال الشافعي رضي الله عنه صاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته وقال وحكى عن الشافعي انه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول وضعته الزنادقة ليشتغلوا به عن القرآن وقال الشافعي رحمه الله ويكره من جهة الخبر اللعب بالنرد اكثر مما يكره اللعب بشيء من الملاهي ولا أحب اللعب بالشطرنج وأكره كل ما يلعب به الناس لأن اللعب ليس من صنعة أهل الدين ولا المروءة وأما مالك رحمه الله فقد نهى عن الغناء وقال إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا ابن سعد وحده وأما أبو حنيفة رضي الله عنه فإنه كان يكره ذلك ويجعل سماع الغناء من الذنوب وكذلك سائر أهل الكوفة سفيان الثوري وحماد وإبراهيم

والشعبي وغيرهم فهذا كله نقله القاضي أبو الطيب الطبري ونقل أبو طالب المكي إباحة السماع من جماعة فقال سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم وقال قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابي وتابعي بإحسان وقال لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة وهي الأيام المعدودات التي أمر الله عباده فيها بذكره كأيام التشريق ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا فأدركنا أبا مروان القاضي وله جوار يسمعن الناس التلحين قد أعدهن للصوفية قال وكان لعطاء جاريتان يلحنان فكان إخوانه يستمعون إليهما قال وقيل لأبي الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسرى السقطى وذو النون يستمعون فقال وكيف انكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير مني فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع وإنما أنكر اللهو واللعب في السماع وروى عن يحيى بن معاذ أنه قال فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها ولا أراها تزداد إلا قلة حسن الوجه مع الصيانة وحسن القول مع الديانة وحسن الإخاء مع الوفاء ورأيت في بعض الكتب هذا محكيا بعينه عن الحارث المحاسبي وفيه ما يدل على تجويزه السماع مع زهده وتصاونه وجده في الدين وتشميره قال وكان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلا أن يكون فيه سماع وحكى غير واحد أنه قال اجتمعنا في دعوة ومعنا أبو القاسم ابن بنت منيع وأبو بكر ابن داود وابن مجاهد في نظرائهم فحضر سماع فجعل ابن مجاهد يحرض ابن بنت منيع على ابن داود في أن يسمع فقال ابن داود حدثني أبي عن احمد بن حنبل أنه كره السماع وكان أبي يكرهه وأنا على مذهب أبي فقال أبو القاسم ابن بنت منيع أما جدى احمد ابن بنت منيع فحدثني عن صالح بن احمد أن أباه كان يسمع قول ابن الخبازة فقال ابن مجاهد لابن داود دعني أنت من أبيك وقال لابن بنت منيع دعني أنت من جدك أي شيء تقول يا أبا بكر فيمن أنشد بيت شعر أهو حرام فقال ابن داود لا قال فإن كان حسن الصوت حرم عليه إنشاده قال لا قال فإن أنشده وطوله وقصر منه الممدود ومد منه المقصور أيحرم عليه قال أنا لم أقو لشيطان واحد فكيف أقوى لشيطانين قال وكان أبو الحسن العسقلاني الأسود من الأولياء يسمع ويوله عند السماع وصنف فيه كتابا ورد فيه على منكريه وكذلك جماعة منهم صنفوا في الرد على منكريه وحكى عن بعض الشيوخ أته قال رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام فقلت له ما تقول في هذا السماع الذي اختلف فيه اصحابنا فقال هو الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء وحكي عن ممشاد الدينوري أنه قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت يا رسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئا فقال ما أنكر منه شيئا ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ويختمون بعده بالقرآن وحكى عن طاهر بن بلال الهمداني الوراق وكان من أهل العلم أنه قال كنت معتكفا في جامع جدة على البحر فرأيت يوما طائفة يقولون في جانب منه قولا ويستمعون فأنكرت ذلك بقلبي وقلت في بيت من بيوت الله يقولون الشعر قال فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة وهو جالس في تلك الناحية والى جنبة أبو بكر الصديق رضي الله عنه وإذا أبو بكر يقول شيئا من القول والنبي صلى الله عليه وسلم يستمع إليه ويضع يده على صدره كالواجد بذلك فقلت في نفسي ما كان ينبغي لي أن أنكر على أولئك الذين كانوا يستمعون وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع وأبو بكر يقول فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال هذا حق بحق أو قال حق من حق أنا أشك فيه وقال الجنيد تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع عند الأكل لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة وعند المذاكرة لأنهم لا يتحاورون إلا في مقامات الصديقين وعند السماع لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقا وعن ابن جريج انه كان يرخص في السماع فقيل له أيؤتى يوم القيامة في جملة حسناتك أو سيئاتك فقال لا في الحسنات ولا في السيئات لأنه شبيه باللغو وقال الله تعالى لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم هذا ما نقل من الاقاويل ومن طلب الحق في التقليد فمهما استقصى تعارضت عنده هذه الاقاويل فيبقى متحيرا أومائلاإلى بعض الاقاويل بالتشهي وكل ذلك قصور بل ينبغي أن يطلب الحق بطريقه وذلك بالبحث عن مدارك الحظر والاباحة كما سنذكره بيان الدليل على إباحة السماع اعلم أن قول القائل السماع حرام معناه أن الله تعالى يعاقب

عليه وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل بل بالسـمع ومعرفة الشـرعيات محصـورة في النص أو القياس على المنصوص وأعنى بـالنص ما أظهـره صـلى الله عليه وسـلم بقوله أو فعله وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله فإن لم يكن فيه نص ولم يستقم فيه قيـاس على منصوص بطل القول بتحريمه وبقى فعلا لا حـرج فيه كسـائر المباحـات ولا يـدل على تحريم السماع نص ولا قياس ويتضح ذلك في جوابنا عن أدلة المـائلين إلى التحـريم ومهما تم الجواب عن أدلتهم كان ذلك مسلكا كافيا في إثبات هذا الغرض لكن نستفتح ونقـول قد دل النص والقياس جميعا على إباحته أما القيـاس فهو أن الغنـاء اجتمعت فيه معـان ينبغي أن يبحث عن افرادها ثم عن مجموعها فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعـنى محـــرك للقلب فالوصف الاعم انه صـــوت طيب ثم الطيب ينقسم إلى المـــوزون وغـــيره والموزون ينقسم إلى المفهـوم كالاشـعار والى غـير المفهـوم كأصـوات الجمـادات وسـائر الحيوانـات أما سـماع الصـوت الطيب من حيث إنه طيب فلا ينبغي أن يحـرم بل هو حلال بالنص والقياس أما القياس فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السـمع بـإدراك ما هو مخصـوص به وللإنسان عقل وخمس حواس ولكل حاسة إدراك وفي مـدركات تلك الحاسة ما يسـتلذ فلذة النظر في المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجاري والوجه الحسن وبالجملة سائر الألوان الجميلة وهي في مقابلة ما يكره من الألوان الكدرة القبيحة وللشم الروائح الطيبة وهي في مقابلة الأنتـــان المســـتكرهة وللـــذوق الطعـــوم اللذيـــذة كالدســـومة والحلاوة والحموضة وهي في مقابلة المـــرارة المستبشـــعة وللمس لـــذة اللين والنعومة والملاسة وهي في مقابلة الخشـونة والضراسة وللعقل لـذة العلم والمعرفة وهي في مقابلة الجهل والبلادة فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذة كصـوت العنـادل والمزامـير ومستكرهة كنهيق الحمير وغيرها فما أظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحـــواس ولذاتها أما النص فيدل على إباحة سماع الصوت الحسن امتنـان الله تعـالى على عبـاده إذ قـال يزيد في الخلق ما يشـاء فقيل هو الصـوت الحسن وفي الحـديث ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت حديث ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت أخرجه الترمـذي في الشـمائل عن قتادة وزاد قوله وكان نبيكم حسن الوجه حسن الصـوت وروينـاه متصلا في الغيلانيـات من رواية قتادة عن أنس والصواب الأول قاله الـدارقطني ورواه ابن مردويه في التفسـير من حديث علي بن أبي طـالب وطرقه كلها ضـعيفة وقـال صـلى الله عليه وسـلم لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته حديث لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته تقدم في كتاب تلاوة القرآن وفي الحديث في معرض المدح لداود عليه السلام أنه كان حسن الصـــوت في النياحة على نفسه وفي تلاوة الزبور حـتى كـان يجتمع الإنس والجن والوحـوش والطـير لسـماع صـوته وكـان يحمل في مجلسه أربعمائة جنـازة وما يقـرب منها في الأوقـات حـديث كـان داود حسن الصـوت في النياحة على نفسه وفي تلاوة الزبور الحديث لم أجد له أصلا وقـال صـلى الله عليه وسـلم في مـدح أبي موسى الأشـعري لقد أعطي مزمـارا من مزامـير آل داود حـديث لقد أوتي مزمارا من مزامـير آل داود قاله في مـدح أبي موسى تقـدم في تلاوة القـرآن وقـول الله تعالى إن أنكر الأصوات لصوت الحمير يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن ولو جاز أن يقال إنما أبيح ذلك بشرط أن يكون في القرآن للزمه أن يحرم سماع صوت العنـدليب لأنه ليس من القرآن وإذا جاز سماع صوت غفل لا معنى له فلم لا يجوز سماع صوت يفهم منه الحكمة والمعـاني الصـحيحة وإن من الشـعر لحكمة فهـذا نظر في الصـوت من حيث أنه طيب حسن الدرجة الثانية النظر في الصـوت الطيب المـوزون فـإن الـوزن وراء الحسن فكم من صوت حسن خارج عن الوزن وكم من صـوت مـوزون غـير مسـتطاب والأصـوات الموزونة باعتبـار مخارجها ثلاثة فإنها إما أن تخـرج من جمـاد كصـوت المزامـير والأوتـار وضرب القضيب والطبل وغيره وإما أن تخرج من حنجرة حيوان وذلك الحيـوان إما إنسـان أو غيره كصوت العنادل والقمارى وذات السجع من الطيور فهي مع طيبها موزونة متناسبة المطالع والمقـاطع فلـذلك يسـتلذ سـماعها والأصل في الأصـوات حنـاجر الحيوانـات وإنما وضعت المزامير على أصـوات الحنـاجر وهو تشـبيه للصـنعة بالخلقة وما من شـيء توصل أهل الصـناعات بصـناعتهم إلى تصـويره إلا وله مثـال في الخلقة الـتي اسـتأثر الله تعـالى

باختراعها فمنه تعلم الصناع وبه قصدوا الإقتداء وشرح ذلك يطول فسـماع هـذه الأصـوات يسـتحيل أن يحـرم لكونها طيبة أو موزونة فلا ذاهب إلى تحـريم صـوت العنـدليب وسـائر الطيور ولا فرق بين حنجرة وحنجـرة ولا بين جمـاد وحيـوان فينبغي أن يقـاس على صـوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمي كالذي يخرج من حلقه أو من القضيب والطبل والدف وغيره ولا يستثنى من هذه إلا الملاهي والأوتار والمزامير التي ورد الشرع بالمنع منها حديث المنع من الملاهي والأوتار والمزامير أخرجه البخـاري من حـديث أبي عامر أو أبي مالك الأشعري ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الخز والحرير والمعازف صورته عند البخاري صورة التعليق ولذلك ضـعفه ابن حـزم ووصـله أبو داود والاسـماعيلي والمعـازف الملاهي قاله الجـوهري ولأحمد من حـديث أبي أمامة إن الله أمـرني أن أمحق المزامير والكيارات يعـني البرابط والمعـازف وله من حـديث قيس بن سـعد بن عبـادة إن ربي حــرم علي الخمر والكوبة والقـنين وله في حــديث لأبي أمامة باســتحلالهم الخمــور وضـربهم بالـدفوف وكلها ضـعيفة ولأبي الشـيخ من حـديث مرسلا الاسـتماع إلى الملاهي معصية الحديث ولأبي داود من حديث ابن عمر سمع مزمارا فوضع أصبعيه على أذنيه قـال أبو داود وهو منكر لا للذتها إذ لو كان للذة لقيس عليها كل ما يلتذ به الإنسان ولكن حرمت الخمور واقتضت ضراوة الناس بها المبالغة في الفطام عنها حـتى انتهى الأمر في الابتـداء إلى كسر الدنان فحرم معها ما هو شعار أهل الشـرب وهي الأوتـار والمزامـير فقط وكـان تحريمها من قبل الاتباع كما حرمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة الجمـاع وحـرم النظر إلى الفخذ لاتصاله بالسوأتين وحـرم قليل الخمر وإن كـان لا يسـكر لأنه يـدعو إلى السـكر وما من حرام إلا وله حريم يطيف به وحكم الحرمة ينسـحب على حريمه ليكـون حمى للحـرام ووقاية له وحظارا مانعا حوله كما قال صلى الله عليه وسـلم إن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه حـــديث إن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه تقـــدم في كتـــاب الحلال والحرام فهي محرمة تبعا لتحريم الخمر لثلاث علل إحداها أنها تدعو إلى شرب الخمر فإن اللذة الحاصـلة بها إنما تتم بـالخمر ولمثل هـذه العلة حـرم قليل الخمر الثانية أنها في حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر مجالس الأنس بالشـرب فهي سـبب الـذكر والـذكر سـبب انبعاث الشوق وانبعاث الشوق إذا قوى فهو سبب الإقدام ولهذه العلة نهى عن الانتبـاذ في المزفت والحنتم والنقير حديث النهي عن الحنتم والمزفت والنقـير متفق عليه من حـديث ابن عباس وهي الأواني التي كانت مخصوصة بها فمعنى هذا أن مشـاهدة صـورتها تـذكرها وهـذه العلة تفـارق الأولى إذ ليس فيها اعتبـار لـذة في الـذكر إذ لا لـذة في رؤية القنينة وأواني الشرب لكن من حيث التذكر بها فإن كان السماع يذكر الشرب تـذكيرا يشـوق إلى الخمر عند من ألف ذلك مع الشرب فهو منهى عن السماع لخصوص هـذه العلة فيه الثالثة الاجتماع عليها لما أن صار من عادة أهل الفسق فيمنع من التشبه بهم لأن من تشبه بقوم فهو منهم وبهذه العلة نقول بترك السنة مهما صارت شعارا لأهل البدعة خوفا من التشــبه بهم وبهـذه العلة يحـرم ضـرب الكوبة وهو طبل مسـتطيل دقيق الوسط واسع الطـرفين وضربها عادة المخنثين ولولا ما فيه من التشبه لكان مثل طبل الحجيج والغزو وبهـذه العلة نقـــول لو اجتمع جماعة وزينـــوا مجلسا وأحضـــروا آلات الشـــرب وأقداحه وصـــبوا فيها السكنجبين ونصبوا ساقيا يدور عليهم ويسـقيهم فيأخـذون من السـاقي ويشـربون ويحـيى بعضهم بعضا بكلماتهم المعتادة بينهم حرم ذلك عليهم وإن كان المشروب مباحا في نفسه لأن في هـذا تشـبها بأهل الفسـاد بل لهـذا ينهى عن لبس القبـاء وعن تـرك الشـعر على الرأس قزعا في بلاد صـار القبـاء فيها من لبـاس أهل الفسـاد ولا ينهى عن ذلك فيما وراء النهر لاعتياد أهل الصـلاح ذلك فيهم فبهـذه المعـاني حـرم المزمـار العـراقي والأوتـار كلها كالعود والصـنج والربـاب والبربط وغيرها وما عـدا ذلك فليس في معناها كشـاهين الرعـاة والحجيج وشـاهين الطبـالين وكالطبل والقضـيب وكل آلة يسـتخرج منها صـوت مسـتطاب موزون سوى ما يعتاده أهل الشـرب لأن كل ذلك لا يتعلق بـالخمر ولا يـذكر بها ولا يشـوق إليها ولا يـــوجب التشـــبه بأربابها فلم يكن في معناها فبقى على أصل الإباحة قياسا على أصوات الطيور وغيرها بل أقول سماع الاوتار ممن يضربها على غير وزن متناسب مسـتلذ حرام أيضا وبهذا يتبين انه ليست العلة في تحريمها مجـرد اللـذة الطيبة بل القيـاس تحليل

الطيبـات كلها إلا ما في تحليله فسـاد قـال الله تعـالى قل من حـرم زينة الله الـتي أخـرج لعباده والطيبـات من الـرزق فهـذه الأصـوات لا تحـرم من حيث إنها أصـوات موزونة وإنما تحـرم بعـارض آخر كما سـيأتي في العـوارض المحرمة الدرجة الثالثة المـوزون والمفهـوم وهو الشـعر وذلك لا يخـرج إلا من حنجـرة الإنسـان فيقطع بإباحة ذلك لأنه ما زاد إلا كونه مفهوما والكلام المفهوم غير حـرام والصـوت الطيب المـوزون غـير حـرام فـإذا لم يحـرم الآحاد فمن أين يحـرم المجمـوع نعم ينظ فيما يفهم منه فـإن كـان فيه أمر محظـور حـرم نـثره ونظمه وحـرم النطق به سـواء كـان بألحـان أو لم يكن والحق فيه ما قاله الشـافعي رحمه الله إذ قال الشعر كلام فحسـنه حسن وقبيحه قـبيح ومهما جـاز إنشـاد الشـعر بغـير صوت وألحان جاز إنشاده مع الألحان فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كـان ذلك المجمـوع مباحا ومهما انضم مبـاح إلى مبـاح لم يحـرم إلا إذا تضـمن المجمـوع محظـورا لا تتضـمنه الآحاد ولا محظور ههنا وكيف ينكر إنشاد الشعر وقد أنشد بين يدي رسـول الله صـلى الله عليه وسلم حديث إنشاد الشعر بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسـلم متفق عليه من حديث أبي هريرة أن عمر مر بحسان وهو ينشد الشـعر في المسـجد فلحظ إليه فقـال قد كنت انشد وفيه من هو خير منك الحديث ولمسلم من حديث عائشة إنشاد حسـان هجـوت محمـدا فـأجبت عنه وعند الله في ذاك الجـزاء القصـيدة وإنشـاد حسـان أيضا وإن سـنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد وللبخاري إنشاد ابن رواحة وفينا رسـول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع الأبيات وقال صـلى الله عليه وسـلم إن من الشـعر لحكمة حـديث إن من الشـعر لحكمة رواه البخـاري من حـديث أبي بن كعب وتقـدم في العلم وأنشـدت عائشة رضي الله عنها ذهب الـذين يعـاش في أكنـافهم وبقيت في خلف كجلد الاجـرب وروي في الصـحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قـالت لما قدم رسول الله صـلى الله عليه وسـلم المدينة وعك أبو بكر وبلال رضي الله عنهما وكـان بها وبـاء فقلت يا أبت كيف تجـدك ويا بلال كيف تجـدك فكـان أبو بكر رضي الله عنه إذا أخذته الحمى يقول كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شـراك نعله وكـان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقـول ألا ليت شـعري هل أبيتن ليلة بـواد وحـولي إذخر وجليل وهل أردن يوما ميـاه مجنة وهل يبـدون لي شـامة وطفيل قـالت عائشة رضي الله عنها فأخبرت بذلك رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فقـال اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد حـديث عائشة في الصـحيحين لما قـدم رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم المدينة وعك أبو بكر وبلال الحديث وفيه إنشاد أبي بكر كل امرئ مصبح في أهله والمـوت أدنى من شراك نعله وإنشـاد بلال ألا ليت شـعري هل أبيتن ليلة بـواد وحـولي إذخر وجليل وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لي شـامة وطفيل قلت هو في الصـحيحين كما ذكر المصنف لكن أصل الحديث والشعر عند البخـاري فقط ليس عند مسـلم وقد كـان رسـول الله صلى الله عليه وسلم ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد وهو يقول هـذا الحمـال لا حمـال خيـبر هـذا أبر ربنا وأطهر وقـال أيضا صـلى الله عليه وسـلم مـرة أخـرى لا هم إن العيش عيش الآخرة فـارحم الأنصـار والمهـاجره حـديث كـان صـلى الله عليه وسـلم ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد وهو يقول هذا الحمال لا حمـال خيـبر هـذا أبر ربنا وأطهر وقـال صـلى الله عليه وسـلم مـرة أخـرى اللهم إن العيش عيش الآخـرة فـارحم الأنصـار والمهاجرة قال المصنف والبيتـان في الصـحيحين قلت الـبيت الأول انفـرد به البخـاري في قصة الهجرة من رواية عروة مرسلا وفيه البيت الثـاني أيضا إلا أنه قـال الأجر بـدل العيش تمثل بشعر رجل من المسـلمين لم يسم لي قـال ابن شـهاب ولم يبلغنا في الأحـاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غـير هـذا الـبيت والـبيت الثـاني في الصحيحين من حـديث أنس يرتجـزون ورسـول الله صـلى الله عليه وسـلم معهم يقولـون اللهم لا خـير إلا خـير الآخـرة فانصر الأنصـار والمهـاجرة وليس الـبيت الثـانى موزونا وفي الصحيحين أيضا أنه قال في حفر الخندق بلفظ فبـارك في الأنصـار والمهـاجره وفي رواية فـاغفر وفي رواية لمسـلم فـأكرم ولهما من حـديث سـهل بن سـعد فـاغفر للمهـاجرين والأنصار وهذه في الصحيحين وكان النـبي صـلى الله عليه وسـلم يضع لحسـان منـبرا في المسجد يقـوم عليه قائما يفـاخر عن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أو ينـافح ويقـول

رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يؤيد حسان بـروح القـدس ما نـافح أو فـاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث كان يضع لحسـان منـبرا في المسـجد يقـوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ينافح الحـديث أخرجه البخـاري تعليقا وأبو داود والترمذي والحـاكم متصلا من حـديث عائشة قـال الترمـذي حسن صـحيح وقـال الحاكم صحيح الإسناد وفي الصحيحين أنها قالت إنه كان ينافح عن رسـول صـلى الله عليه وسلم الله ولما أنشـده النابغة شـعره قـال له صـلى الله عليه وسـلم لا يفضض الله فـاك حديث أنه قال للنابغة لما أنشده شعرا لا يفضض الله فاك رواه البغوي في معجم الصحابة وابن عبد البر في الاسـتيعاب بإسـناد ضـعيف من حـديث النابغة واسـمه قيس بن عبد الله قال أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لـنرجو فـوق ذلك مظهرا الأبيات ورواه البزار بلفظ علونا العباد عفة وتكرما الأبيات وفيه فقال أحسنت يا أبا ليلى لا يفضض الله فـاك وللحـاكم من حـديث خـزيم بن أوس سـمعت العبـاس يقـول يا رسـول الله إنى أريد أن أمتـدحك فقـال قل لا يفضض الله فـاك فقـال العبـاس من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق الأبيات وقـالت عائشة رضي الله عنها كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتناشدون عنده الأشـعار وهو يتبسم حـديث عائشة كـان أصـحاب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يتناشـدون الاشـعار وهو يتبسم أخرجه الترمذي من حديث جابر بن سمرة وصححه ولم أقف عليه من حـديث عائشة وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال أنشـدت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت كل ذلك يقول هيه هيه ثم قال إن كـاد في شـعره ليسـلم حـديث الشريد أنشدت النبي صلى الله عليه وسـلم مائة قافية من قـول أمية بن أبي الصـلت كل ذلك يقول هيه هيه الحديث رواه مسلم وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صـلى الله عليه وسلم كان يحدى له في السفر وإن أنجشة كان يحدو بالنساء والـبراء بن مالك كـان يحـدو بالرجال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أنجشة رويدك سوقك بـالقوارير حـديث أنس كان يحدى له في السفر وإن أنجشة كان يحدو بالنسـاء وكـان الـبراء بن مالك يحـدو بالرجال الحـديث رواه أبو داود الطيالسي واتفق الشـيخان منه على قصة أنجشة دون ذكر البراء بن مالك ولم يزل الحداء وراه الجمال من عادة العرب في زمان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وزمـان الصـحابة رضي الله عنهم وما هو إلا أشـعار تـؤدى بأصـوات طيبة وألحان موزونة ولم ينقل عن أحد من الصـحابة إنكـاره بل ربما كـانوا يلتمسـون ذلك تـارة لتحريك الجمال وتارة للاستلذاذ فلا يجوز أن يحرم من حيث إنه كلام مفهوم مستلذ مــؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة الدرجة الرابعة النظر فيه من حيث إنه محـرك للقلب ومهيج لما هو الغالب عليه فأقول لله تعالى سر في مناسـبة النغمـات الموزونة للأرواح حـتى إنها لتـؤثر فيها تـأثيرا عجيبا فمن الأصـوات ما يفـرح ومنها ما يحـزن ومنها ما ينـوم ومنها ما يضحك ويطرب ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس ولا ينبغي أن يظن أن ذلك لفهم معـاني الشـعر بل جـار في الأوتـار حـتى قيل من لم يحركه الربيع وأزهـاره والعـود وأوتـاره فهو فاسد المـزاج ليس له علاج وكيف يكـون ذلك لفهم المعـنى وتـأثيره مشـاهد في الصـبى في مهـده فإنه يسـكنه الصـوت الطيب عن بكائه وتنصـرف نفسه عما يبكيه إلى الإصـغاء إليه والجمل مع بلادة طبعه يتـأثر بالحـداء تـأثرا يسـتخف معه الأحمـال الثقيلة ويستقصر لقـوة نشـاطه في سـماعه المسـافات الطويلة وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولهه فتراها إذا طالت عليها البـوادي واعتراها الإعيـاء والكلال تحت المحامل والأحمال إذا سمعت منادى الحداء تمد أعناقها وتصغى إلى الحـادي ناصية آذانها وتسرع في سـيرها حـتى تـتزعزع عليها أحمالها ومحاملها وربما تتلف أنفسـها من شدة السـير وثقل الحمل وهي لا تشـعر به لنشـاطها فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الـدينوري المعـروف بـالرقي رضي الله عنه قـال كنت بالبادية فـوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافني رجل منهم وأدخلني خباءه فرأيت في الخباء عبدا أسود مقيدا بقيد ورأيت جمالا قد ماتت بين يـدي الـبيت وقد بقى منها جمل وهو ناحل ذابل كأنه يـنزع روحه فقـال لي الغلام أنت ضيف ولك حق فتشفع في إلى مولاي فإنه مكرم لضـيفه فلا يـرد شـفاعتك في هذا القدر فعساه يحل القيد عني قال فلما أحضروا الطعام امتنعت وقلت لا آكل ما لم

أشفع في هذا العبد فقال إن هذا العبد قد أفقرني وأهلك جميع مالي فقلت ماذا فعل فقال
إن له صوتا طيبا وإني كنت أعيش من ظهور هذه الجمال فحملها أحمالا ثقالا وكان يحدو
بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة من طيب نغمته فلما حطت أحمالها
ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد ولكن أنت ضيفي فلكرامتك قد وهبته لك قال فأحببت أن
أسمع صوته فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقى الماء من بئر هناك فلما رفع
صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقعت أنا على وجهي فما أظن أني سمعت قط صوتا
أطيب منه فإذن تأثير السماع في القلب محسوس ومن لم يحركه السماع فهو ناقص
مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور
بل على جميع البهائم فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة ولذلك كانت الطيور تقف على
رأس داود عليه السلام لاستماع صوته ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في
القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقا بإباحة ولا تحريم بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص
واختلاف طرق النغمات فحكمه حكم ما في القلب قال أبو سليمان السماع لا يجعل في
القلب ما ليس فيه ولكن يحرك ما هو فيه فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد في
مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار في القلب وهي سبعة مواضع الأول غناء الحجيج
فإنهم اولا يدورون في البلاد بالطبل والشاهين والغناء وذلك مباح لأنها أشعار نظمت في
وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر ووصف البادية وغيرها وأثر ذلك
يهيج الشوق إلى حج بيت الله تعالى واشتعال نيرانه إن كان ثم شوق حاصل أو استثارة
الشوق واجتلابه إن لم يكن حاصلا وإذا كان الحج قربة والشوق إليه محمودا كان التشويق
إليه بكل ما يشوق محمودا وكما يجوز للواعظ أن ينظم كلامه في الوعظ ويزينه بالسجع
ويشوق الناس إلى الحج بوصف البيت والمشاعر ووصف الثواب عليه جاز لغيره ذلك على
نظم الشعر فإن الوزن إذا انضاف إلى السجع صار الكلام أوقع في القلب فإذا أضيف إليه
صوت طيب ونغمات موزونة زاد وقعه فإن أضيف إليه الطبل والشاهين وحركات الإيقاع
زاد التأثير وكل ذلك جائز ما لم يدخل فيه المزامير والأوتار التي هي من شعار الأشرار
نعم إن قصد به تشويق من لا يجوز له الخروج إلى الحج كالذي أسقط الفرض عن نفسه
ولم يأذن له أبواه في الخروج فهذا يحرم عليه الخروج فيحرم تشويقه إلى الحج بالسماع
بكل كلام يشوق إلى الخروج فإن التشويق إلى الحرام حرام وكذلك إن كانت الطريق غير
آمنة وكان الهلاك غالبا لم يجز تحريك القلوب ومعالجتها بالتشويق الثاني ما يعتاده الغزاة
لتحريض الناس على الغزو وذلك أيضا مباح كما للحاج ولكن ينبغي أن تخالف أشعارهم
وطرق ألحانهم أشعار الحاج وطرق ألحانهم لأن استثارة داعية الغزو بالتشجيع وتحريك
الغيظ والغضب فيه على الكفار وتحسين الشجاعة واستحقار النفس والمال بالإضافة إليه
بالأشعار المشجعة مثل قول المتنبي فإن لا تمت تحت السيوف مكرما تمت وتقاس الذل
غير مكرم وقوله أيضا يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم وأمثال ذلك
وطرق الأوزان المشجعة تخالف الطرق المشوقة وهذا أيضا مباح في وقت يباح فيه الغزو
ومندوب إليه وقت يستحب فيه الغزو ولكن في حق من يجوز له الخروج إلى الغزو الثالث
الرجزيات التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاء والغرض منها التشجيع للنفس وللأنصار
وتحريك النشاط فيهم للقتال وفيه التمدح بالشجاعة والنجدة وذلك إذا كان بلفظ رشيق
وصوت طيب كان أوقع في النفس وذلك مباح في كل قتال مباح ومندوب في قتال
مندوب ومحظور في قتال المسلمين وأهل الذمة وكل قتال محظور لأن تحريك الدواعي
إلى المحظور محظور وذلك منقول عن شجعان الصحابة رضي الله عنهم كعلي وخالد
رضي الله عنهما وغيرهما ولذلك نقول ينبغي أن يمنع من الضرب بالشاهين في معسكر
الغزاة فإن صوته مرقق محزن يحلل عقدة الشجاعة ويضعف صرامة النفس ويشوق إلى
الأهل والوطن ويورث الفتور في القتال وكذا سائر الأصوات والألحان المرققة للقلب
فالألحان المرققة المحزنة تباين الألحان المحركة المشجعة فمن فعل ذلك على قصد
تغيير القلوب وتفتير الآراء عن القتال الواجب فهو عاص ومن فعله على قصد التفتير عن
القتال المحظور فهو بذلك مطيع الرابع أصوات النياحة ونغماتها وتأثيرها في تهييج الحزن
والبكاء وملازمة الكآبة والحزن قسمان محمود ومذموم فأما المذموم فكالحزن على ما

فات قال الله تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم والحـزن على الأمـوات من هـذا القبيل فإنه تسخط لقضاء الله تعالى وتأسف على ما لا تدارك له فهـذا الحـزن لما كـان مـذموما كـان تحريكه بالنياحة مـذموما فلـذلك ورد النهي الصـريح عن النياحة حـديث النهي عن النياحة متفق عليه من حديث أم عطية أخذ علينا النبي صلى الله عليه وسلم في البيعة أن لا ننوح وأما الحزن المحمود فهو حـزن الإنسـان على تقصـيره في أمر دينه وبكـاؤه على خطايـاه والبكاء والتباكي والحزن والتحازن على ذلك محمـود وعليه بكـاء آدم عليه السـلام وتحريك هذا الحزن وتقويته محمود لأنه يبعث على التشمير للتـدارك ولـذلك كـانت نياحة داود عليه السلام محمودة إذ كان ذلك مع دوام الحـزن وطـول البكـاء بسـبب الخطايا والـذنوب فقد كان عليه السلام يبكي ويبكي ويحـزن حـتى كـانت الجنـائز ترفع من مجـالس نياحته وكـان يفعل ذلك بألفاظه وألحانه وذلك محمـود لأن المفضى إلى المحمـود محمـود وعلى هـذا لا يحرم على الواعظ الطيب الصوت أن ينشد على المنـبر بألحانه الأشـعار المحزنة المرققة للقلب ولا أن يبكى ويتباكى ليتوصل به إلى تبكية غيره وإثـارة حزنه الخـامس السـماع في أوقات السرور تأكيدا للسرور وتهييجا له وهو مباح إن كان ذلك السـرور مباحا كالغنـاء في أيـام العيد وفي العـرس وفي وقت قـدوم الغـائب وفي وقت الوليمة والعقيقة وعند ولادة المولـود وعند ختانه وعند حفظه القـرآن العزيز وكل ذلك مبـاح لأجل إظهـار السـرور به ووجه جوازه أن من الألحان ما يثير الفرح والسرور والطرب فكل ما جـاز السرور به جـاز إثاره السرور فيه ويدل على هذا من النقل إنشاد النسـاء على السـطوح بالـدف والألحـان عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسـلم حـديث إنشـاد النسـاء عند قـدوم رسـول الله صلى الله عليه وسلم طلع البدر علينا من ثنيـات الـوداع وجب الشـكر علينا ما دعا لله داع أخرجه البيهقي في دلائل النبـوة من حـديث عائشة معضلا وليس فيه ذكر الـدف والالحـان طلع البدر علينا من ثنيـات الـوداع وجب الشـكر علينا ما دعا لله داع فهـذا إظهـار السـرور لقدومه صلى الله عليه وسـلم وهو سـرور محمـود فإظهـاره بالشـعر والنغمـات والـرقص والحركات أيضا محمود فقد نقل عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنهم حجلـوا في سـرور أصـابهم حـديث حجل جماعة من الصـحابة في سـرور أصـابهم أخرجه أبو داود من حديث على وسيأتي في الباب الثاني كما سـيأتي في أحكـام الـرقص وهو جـائز في قـدوم كل قادم يجوز الفرح به وفي كل سبب مباح من أسـباب السـرور ويـدل على هـذا ما روي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسـترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبـون في المسـجد حـتى أكـون أنا الـذي أسـأمه حديث عائشة رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبـون في المسـجد الحـديث هو كما ذكـره المصـنف أيضا في الصـحيحين لكن قوله إنه فيهما من رواية عقيل عن الزهري ليس كما ذكر بل هو عند البخاري كما ذكر وعند مسـلم من رواية عمـرو بن الحـارث عنه فاقـدروا قـدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو إشارة إلى طول مدة وقوفها وروى البخاري ومسلم أيضا في صحيحيهما حـديث عقيل عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعنـدها جاريتـان في أيـام مـنى تـدففان وتضـربان والنـبي صـلى الله عليه وسـلم متغش بثوبه فانتهرهما أبو بكر رضي الله عنه فكشف النـبي صـلى الله عليه وسـلم عن وجهه وقـال دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد وقـالت عائشة رضى الله عنها رأيت صـلى الله عليه وسـلم يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبـون في المسـجد فزجـرهم عمر رضي الله عنه فقال النبي صلى الله عليه وسلم أمنا يا بـني أرفـدة حـديث عائشة رأيت النـبي صـلى الله عليه وسلم يسـترني بثوبه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبـون في المسـجد فزجـرهم عمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم أمنا يا بني أرفدة تقـدم قبله بحـديث دون زجر عمر لهم إلى آخره فـرواه مسـلم من حـديث أبي هريـرة دون قوله أمنا يا بـني أرفـدة بل قـال دعهم يا عمر زاد النسائي فإنما هم بنو أرفـدة ولهما من حـديث عائشة دونكم بـني أرفـدة وقد ذكره المصنف بعد هذا يعني من الأمن ومن حديث عمـرو بن الحـرث عن ابن شـهاب نحوه وفيه تغنيان وتضـربان حـديث عمـرو بن الحـارث عن ابن شـهاب نحـوه وفيه يغنيـان ويضربان رواه مسلم وهو عند البخاري من رواية الأوزاعي عن ابن شهاب وفي حديث أبي

طـاهر عن ابن وهب والله لقد رأيت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يقـوم على بـاب حجـرتي والحبشة يلعبـون بحـرابهم في مسـجد رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وهو يسـترني بثوبه أو بردائه لكي أنظر إلى لعبهم ثم يقـوم من أجلي حـتى أكـون أنا الـذي أنصرف حديث أبي طاهر عن ابن وهب والله لقد رأيت رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يقـوم على بـاب حجـرتي والحبشة يلعبـون بحـرابهم الحـديث رواه مسـلم أيضا وروي عن عائشة رضي الله عنها قـالت كنت ألعب بالبنـات عند رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قالت وكان يأتيني صـواحب لي فكن يتقنعن من رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وكـان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسر لمجيئهن إلى فيلعبن معي حديث عائشة كنت ألعب بالبنات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث وهو في الصحيحين كماذكر المصنف لكن مختصر إلى قولها فيلعبن معى وأما الرواية المطولة التى ذكرها المصـنف بقوله وفي رواية فليست من الصحيحين إنما رواها أبو داود بإسناد صـحيح وفي رواية أن النـبي صـلى الله عليه وسلم قال لها يوما ما هذا قالت بناتي قال فما هذا الذي أرى في وسطهن قالت فرس قال ما هذا الذي عليه قالت جناحان قال فـرس له جناحـان قـالت أو ما سـمعت أنه كان لسـليمان بن داود عليه السـلام خيل لها أجنحة قـالت فضـحك رسـول الله صـلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه والحديث محمول عندنا على عادة الصبيان في اتخاذ الصورة من الخزف والرقاع من غير تكميل صـورته بـدليل ما روى في بعض الروايـات أن الفـرس كان له جناحان من رقـاع وقـالت عائشة رضي الله عنها دخل على رسـول الله صـلى الله عليه وسلم وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحـول وجهه فـدخل أبو بكر رضي الله عنه فـانتهرني وقـال مزمـار الشـيطان عند رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فأقبل عليه رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وقـال دعهما فلما غفل غمزتهما فخرجتا حديث عائشة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي جاريتان تغنيـان بغنـاء بعاث الحديث هو في الصحيحين كما ذكر المصنف والرواية الـتي عزاها لمسـلم انفـرد بها مسلم كما ذكر وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدرق والحراب فإما سألت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم وإما قـال تشـتهين تنظـرين فقلت نعم فأقـامني وراءه وخـدي على خده ويقول دونكم يا بني أرفـدة حـتى إذا مللت قـال حسـبك قلت نعم قـال فـاذهبي وفي صـحيح مسـلم فوضـعت رأسي على منكبه فجعلت أنظر إلى لعبهم حـتى كنت أنا الـذي انصرفت فهذه الأحـاديث كلها في الصـحيحين وهو نص صـريح في أن الغنـاء واللعب ليس بحرام وفيها دلالة على أنواع من الرخص الأول اللعب ولا يخفى عـادة الحبشة في الـرقص واللعب والثاني فعل ذلك في المسجد والثـالث قوله صـلى الله عليه وسـلم دونكم يا بـني أرفدة وهذا أمر بـاللعب والتمـاس له فكيف يقـدر كونه حراما والرابع منعه لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما عن الإنكـار والتغيـير وتعليله بأنه يـوم عيد أي هو وقت سـرور وهـذا من أسباب السرور والخامس وقوفه طويلا في مشـاهدة ذلك وسـماعه لموافقة عائشة رضي الله عنها وفيه دليل على أن حسن الخلق في تطـييب قلـوب النسـاء والصـبيان بمشـاهدة اللعب أحسن من خشـونة الزهد والتقشف في الامتنـاع والمنع منه والسـادس قوله صـلى الله عليه وسلم ابتداء لعائشة أتشتهين أن تنظري ولم يكن ذلك عن اضطرار إلى مساعدة الأهل خوفا من غضب أو وحشة فإن الإلتماس إذا سـبق ربما كـان الـرد سـبب وحشة وهو محذور فيقدم محذور على محذور فأما ابتـداء السـؤال فلا حاجة فيه والسـابع الرخصة في الغنـاء والضـرب بالـدف من الجـاريتين مع أنه شـبه ذلك بمزمـار الشـيطان وفيه بيـان أن المزمار المحرم غير ذلك والثامن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كـان يقـرع سـمعه صوت الجاريتين وهو مضـطجع ولو كـان يضـرب بالأوتـار في موضع لما جـوز الجلـوس ثم لقرع صـوت الأوتـار سـمعه فيـدل هـذا على أن صـوت النسـاء غـير محـرم تحـريم صـوت المزامير بل إنما يحرم عند خوف الفتنة فهذه المقاييس والنصـوص تـدل على إباحة الغنـاء والرقص والضرب بالدف واللعب بالدرق والحـراب والنظر إلى رقص الحبشة والزنـوج في أوقـات السـرور كلها قياسا على يـوم العيد فإنه وقت سـرور وفي معنـاه يـوم العـرس والوليمة والعقيقة والختان ويوم القدوم من السفر وسائر أسباب الفـرح وهو كل ما يجـوز به الفرح شرعا ويجـوز الفـرح بزيـارة الإخـوان ولقـائهم واجتمـاعهم في موضع واحد على

طعـام أو كلام فهو أيضا مظنه السـماع السـادس سـماع العشـاق تحريكا للشـوق وتهييجا للعشق وتسلية للنفس فإن كان في مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد اللـذة وإن كـان مع المفارقة فالغرض تهييج الشوق والشوق وإن كان ألما ففيه نوع لذة إذا انضـاف إليه رجـاء الوصـال فـإن الرجـاء لذيذ واليـأس مـؤلم وقـوة لـذة الرجـاء بحسب قـوة الشـوق والحب للشـيء المرجو ففي هـذا السـماع تهـييج العشق وتحريك الشـوق وتحصـيل لـذة الرجـاء المقدر في الوصال مع الإطناب في وصف حسن المحبـوب وهـذا حلال إن كـان المشـتاق إليه ممن يباح وصـاله كمن يعشق زوجته أو سـريته فيصـغى إلى غنائها لتضـاعف لذته في لقائها فيحظى بالمشاهدة البصر وبالسـماع الأذن ويفهم لطـائف معـاني الوصـال والفـراق القلب فتترادف أسباب اللذة فهذه أنواع تمتع من جملة مباحات الـدنيا ومتاعها وما الحيـاة الـدنيا إلا لهو ولعب وهـذا منه وكـذلك إن غضـبت منه جارية أو حيل بينه وبينها بسـبب من الأسـباب فله أن يحـرك بالسـماع شـوقه وأن يسـتثير به لـذة رجـاء الوصـال فـإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده إذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء وأما من يتمثل في نفسه صورة صبي أو امرأة لا يحل له النظر إليها وكان يـنزل ما يسـمع على ما تمثل في نفسه فهــذا حــرام لأنه محــرك للفكر في الأفعــال المحظــورة ومهيج للداعية إلى ما لا يباح الوصول إليه وأكثر العشاق والسفهاء من الشـباب في وقت هيجـان الشـهوة لا ينفكـون عن إضـمار شـيء من ذلك وذلك ممنـوع في حقهم لما فيه من الـداء الدفين لا لأمر يرجع إلى نفس السماع ولذلك سـئل حكيم عن العشق فقـال دخـان يصـعد إلى دمـاغ الإنسـان يزيله الجمـاع ويهيجه السـماع السـابع سـماع من أحب الله وعشـقه واشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه سبحانه ولا يقرع سـمعه قـارع إلا سـمعه منه أو فيه فالسماع في حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه وحبه ومور زنـاد قلبه ومسـتخرج منه احوالا من المكاشـفات والملاطفـات لا يحيط الوصف بها يعرفها من ذاقها وينكرها من كل حسه عن ذوقها وتسـمى تلك الأحـوال بلسـان الصـوفية وجـدا مـأخوذ من الوجـود والمصادفة أي صادف من نفسه أحوالا لم يكن يصادفها قبل السماع ثم تكون تلك الأحوال اسبابا لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتنقيه من الكدورات كما تنقى النار الجواهر المعروضة عليها من الخبث ثم يتبع الصـفاء الحاصل به مشـاهدات ومكاشـفات وهي غاية مطالب المحبين لله تعالى ونهاية ثمرة القربـات كلها فالمفضي إليها من جملة القربـات لا من جملة المعاصي والمباحات وحصول هذه الأحوال للقلب بالسماع سببه سر الله تعـالى في مناسبة النغمـات الموزونة للأرواح وتسـخير الأرواح لها وتأثرها بها شـوقا وفرحا وحزنا وانبساطا وانقباضا ومعرفة السبب في تأثر الأرواح بالاصوات من دقائق علوم المكاشفات والبليد الجامد القاسي القلب المحروم عن لذة السماع يتعجب من التذاذ المستمع ووجده واضــطراب حاله وتغــير لونه تعجب البهيمة من لــذة اللــوزينج وتعجب العــنين من لــذة المباشرة وتعجب الصبي من لذة الرياسة واتسـاع أسـباب الجـاه وتعجب الجاهل من لـذة معرفة الله تعـالى ومعرفة جلاله وعظمته وعجـائب صـنعه ولكل ذلك سـبب واحد وهو أن اللذة نوع إدراك والإدراك يستدعي مدركا ويستدعي قوة مدركة فمن لم تكمل قوة إدراكه لم يتصور منه التلذذ فكيف يدر لذة الطعوم من فقد الـذوق وكيف يـدرك لـذة الألحـان من فقد السـمع ولـذة المعقـولات من فقد العقل وكـذلك ذوق السـماع بـالقلب بعد وصـول الصوت إلى السمع يـدرك بحاسة باطنة في القلب فمن فقـدها عـدم لا محالة لذته ولعلك تقول كيف يتصور العشق في حق الله تعالى حتى يكـون السـماع محركا له فـاعلم أن من عرف الله احبه لا محالة ومن تأكدت معرفته تأكـدت محبته بقـدر تأكد معرفته والمحبة إذا تأكدت سميت عشـقا فلا معـنى للعشق إلا محبة مؤكـدة مفرطة ولـذلك قـالت العـرب إن محمدا قد عشق ربه لما رأوه يتخلى للعبـادة في جبل حـراء واعلم أن كل جمـال محبـوب عند مـدرك ذلك الجمـال والله تعـالى جميل يحب الجمـال ولكن الجمـال إن كـان بتناسب الخلقة وصـفاء اللـون أدرك بحاسة البصر وإن كـان الجمـال بـالجلال والعظمة وعلو الرتبة وحسن الصـفات والأخلاق وإرادة الخـيرات لكافة الخلق وإفاضـتها عليهم على الـدوام إلى غير ذلك من الصفات الباطنة أدرك بحاسة القلب ولفظ الجمال قد يستعار أيضا لها فيقـال إن فلانا حسن وجميل ولا تـراد صـورته وإنما يعـني به أنه جميل الأخلاق محمـود الصـفات

حسن السيرة حتى قد يحب الرجل بهذه الصفات الباطنة استحسانا لها كما تحب الصورة الظاهرة وقد تتأكد هذه المحبة فتسمى عشقا وكم من الغلاة في حب أرباب المذاهب كالشافعي ومالك وأبي حنيفة رضي الله عنهم حتى يبذلوا أموالهم وأرواحهم في نصرتهم وموالاتهم ويزيدوا على كل عاشق في الغلو والمبالغة ومن العجب أن يعقل عشق شخص لم تشاهد قط صورته أجميل هو أم قبيح وهو الآن ميت ولكن لجمال صورته الباطنة وسيرته المرضية والخيرات الحاصلة من عمله لأهل الدين وغير ذلك من الخصال ثم لا يعقل عشق من ترى الخيرات منه بل على التحقيق من لا خير ولا جمال ولا محبوب في العالم إلا وهو حسنة من حسناته وأثر من آثار كرمه وغرفة من بحر جوده بل كل حسن وجمال في العالم أدرك بالعقول والأبصار والأسماع وسائر الحواس من مبتدإ العالم إلى منقرضه ومن ذروة الثريا إلى منتهى الثرى فهو ذرة من خزائن قدرته ولمعة من أنوار حضرته فليت شعري كيف لا يعقل حب من هذا وصفه وكيف لا يتأكد عند العارفين بأوصافه حبه حتى يجاوز حدا يكون إطلاق اسم العشق عليه ظلما في حقه لقصوره عن الإنباء عن فرط محبته فسبحان من احتجب عن الظهور بشدة ظهوره واستتر عن الأبصار بإشراق نوره ولولا احتجابه بسبعين حجابا من نوره لاحرقت سبحات وجهه أبصار الملاحظين لجمال حضرته ولولا أن ظهوره سبب خفائه لبهتت العقول ودهشت القلوب وتخاذلت القوى وتنافرت الأعضاء ولوركبت القلوب من الحجارة والحديد لأصبحت تحت مبادى أنوار تجليله دكادكا فأنى تطيق كنه نور الشمس أبصار الخفافيش وسيأتي تحقيق هذه الإشارة في كتاب المحبة ويتضح أن محبة غير الله تعالى قصور وجهل بل المتحقق بالمعرفة لا يعرف غير الله تعالى إذ ليس في الوجود تحقيقا إلا الله وأفعاله ومن عرف الأفعال من حيث إنها أفعال لم يجاوز معرفة الفاعل إلى غيره فمن عرف الشافعي مثلا رحمه الله وعلمه وتصنيفه من حيث إنه تصنيفه لا من حيث إنه بياض وجلد وحبر وورق وكلام منظوم ولغة عربية فلقد عرفه ولم يجاوز معرفة الشافعي إلى غيره ولا جاوزت محبته إلى غيره فكل موجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وفعله وبديع أفعاله فمن عرفها من حيث هي صنع الله تعالى فرأى من الصنع صفات الصانع كما يرى من حسن التصنيف فضل المصنف وجلالة قدره كانت معرفته ومحبته مقصورة على الله تعالى غير مجاوزة إلى سواه ومن حد هذا العشق أنه لا يقبل الشركة وكل ما سوى هذا العشق فهو قابل للشركة إذ كل محبوب سواه يتصور له نظير إما في الوجود وإما في الإمكان فأما هذا الجمال فلا يتصور له ثان لا في الإمكان ولا في الوجود فكان اسم العشق على حب غيره مجازا محضالا حقيقة نعم الناقص القريب في نقصانه من البهيمة قد لا يدرك من لفظة العشق إلا طلب الوصال الذي هو عبارة عن تماس ظواهر الأجسام وقضاء شهوة الوقاع فمثل هذا الحمار ينبغي أن لا يستعمل معه لفظة العشق والشوق والوصال والأنس بل يجنب هذه الألفاظ والمعاني كما تجنب البهيمة النرجس والريحان وتخصص بالفت والحشيش وأوراق القضبان فإن الألفاظ إنما يجوز إطلاقها في حق الله تعالى إذا لم تكن موهمة معنى يجب تقديس الله تعالى عنه والأوهام تختلف باختلاف الأفهام فليتنبه لهذه الدقيقة في أمثال هذه الألفاظ بل لا يبعد أن ينشأ من مجرد السماع لصفات الله تعالى وجد غالب يقطع بسببه نياط القلب فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذكر غلاما كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه من خلق السماء قالت الله عز وجل قال فمن خلق الأرض قالت الله عز وجل قال فمن خلق الجبال قالت الله عز وجل قال فمن خلق الغيم قالت الله عز وجل قال إني لأسمع لله شأنا ثم رمى بنفسه من الجبل فتقطع حديث أبي هريرة إن غلاما كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه من خلق السماء فقالت الله الحديث وفيه ثم رمى نفسه من الجبل فتقطع رواه ابن حبان وهذا كأنه سمع ما دل على جلال الله تعالى وتمام قدرته فطرب لذلك ووجد فرمى بنفسه من الوجد وما أنزلت الكتب إلا ليطربوا بذكر الله تعالى قال بعضهم رأيت مكتوبا في الإنجيل غنينا لكم فلم تطربوا وزمرنا لكم فلم ترقصا أي شوقناكم بذكر الله تعالى فلم تشتاقوا فهذا ما أردنا أن نذكره من أقسام السماع وبواعثه ومقتضياته وقد ظهر على القطع إباحته في بعض المواضع والندب إليه في بعض المواضع

فإن قلت فهل له حالة يحرم فيها فـأقول إنه يحـرم بخمسة عـوارض عـارض في المسـمع وعـارض في آلة الإسـماع وعـارض في نظم الصـوت وعـارض في نفس المسـتمع أو في مواظبته وعـارض في كـون الشـخص من عـوام الخلق لأن أركـان السـماع هي المسـمع والمستمع وآلة الإسماع العارض الأول أن يكون المسمع امـرأة لا يحل النظر إليها وتخشى الفتنة من سماعها وفي معناها الصـبي الأمـرد الـذي تخشى فتنته وهـذا حـرام لما فيه من خوف الفتنة وليس ذلك لأجل الغناء بل لو كانت المرأة بحيث يفتتن بصـوتها في المحـاورة من غـير ألحـان فلا يجـوز محاورتها ومحادثتها ولا سـماع صـوتها في القـرآن أيضا وكـذلك الصبي الذي تخاف فتنته فإن قلت فهل تقول إن ذلك حـرام بكل حـال حسـما للبـاب أو لا يحرم إلا حيث تخاف الفتنة في حق من يخاف العنت فأقول هذه مسـألة محتملة من حيث الفقه يتجاذبها أصـلان أحـدهما أن الخلـوة بالأجنبية والنظر إلى وجهها حـرام سـواء خيفت الفتنة أو لم تخف لأنها مظنة الفتنة على الجملة فقضى الشـــرع بحسم البـــاب من غـــير التفـات إلى الصـور والثـاني أن النظر إلى الصـبيان مبـاح إلا عند خـوف الفتنة فلا يلحق الصـبيان بالنسـاء في عمـوم الحسم بل يتبع فيه الحـال وصـوت المـرأة دائر بين هـذين الأصلين فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب وهو قياس قريب ولكن بينهما فرق إذ الشـهوة تـدعو إلى النظر في أول هيجانها ولا تـدعو إلى سـماع الصـوت وليس تحريك النظر لشهوة المماسة كتحريك السـماع بل هو أشد وصـوت المـرأة في غـير الغنـاء ليس بعـورة فلم تـزل النسـاء في زمن الصـحابة رضي الله عنهم يكلمن الرجـال في السـلام والاسـتفتاء والسـؤال والمشـاورة وغـير ذلك ولكن للغنـاء مزيد أثر في تحريك الشـهوة فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب كما لم تـؤمر النسـاء بستر الأصوات فينبغي أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه هذا هو الأقيس عندي ويتأيد بحـديث الجـاريتين المغنيـتين في بيت عائشة رضي الله عنها إذ يعلم أنه صـلى الله عليه وسـلم كـان يسـمع أصـواتهما ولم يحـترز منه ولكن لم تكن الفتنة مخوفة عليه فلـذلك لم يحترز فإذن يختلف هذا بـأحوال المـرأة وأحـوال الرجل في كونه شـابا وشـيخا ولا يبعد أن يختلف الأمر في مثل هـذا بـالأحوال فإنا نقـول للشـيخ أن يقبل زوجته وهو صـائم وليس للشاب ذلك لأن القبلة تدعو إلى الوقاع في الصوم وهو محظور والسماع يـدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام فيختلف ذلك أيضا بالأشخاص العارض الثـاني في الآلة بـأن تكـون من شـعار أهل الشـرف أو المخنـثين وهي المزامـير والأوتـار وطبل الكوبة فهـذه ثلاثة أنـواع ممنوعة وما عـــدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالـــدف وإن كـــان فيه الجلاجل وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات العـارض الثـالث في نظم الصـوت وهو الشـعر فإن كان فيه شيء من الخنا والفحش والهجو أو ما هو كذب على الله تعالى وعلى رسوله صـلى الله عليه وسـلم أو على الصـحابة رضي الله عنهم كما رتبه الـروافض في هجـاء الصحابة وغيرهم فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان والمستمع شريك للقائل وكـذلك ما فيه وصف امرأة بعينها فإنه لا يجوز وصف المرأة بين الرجال وأما هجاء الكفار وأهل البدع فذلك جائز فقد كان حسان بن ثابت رضي الله عنه ينـافح عن رسـول الله صـلى الله عليه وسلم ويهاجى الكفار وأمره صلى الله عليه وسلم بذلك حديث أمره صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت بهجاء المشركين متفق عليه من حـديث الـبراء أنه صـلى الله عليه وسـلم قـال لحسـان اهجهم أو هـاجهم وجبريل معك فأما النسـيب وهو التشـبيه بوصف الخـدود والأصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء فهـذا فيه نظر والصـحيح أنه لا يحـرم نظمه وإنشـاده بلحن وغـير لحن وعلى المسـتمع أن لا ينزله على امـرأة معينة فـإن نزله فلينزله على من يحل له من زوجته وجاريته فـــإن نزله على أجنبية فهو العاصي بالتنزيل وإحالة الفكر فيه ومن هــذا وصــفه فينبغي أن يجتنب السـماع رأسا فــإن من غلب عليه عشق نـزل كل ما يسـمعه عليه سـوء كـان اللفظ مناسـبا له أو لم يكن إذ ما من لفظ إلا ويمكن تنزيله على معان بطريق الإسـتعارة فالـذي يغلب على قلبه حب الله تعـالى يتـذكر بسواد الصدغ مثلا ظلمة الكفر وبنضارة الخد نور الإيمـان وبـذكر الوصـال لقـاء الله تعـالى وبذكر الفراق الحجاب عن الله تعالى في زمرة المردودين وبذكر الرقيب المشوش لـروح الوصال عوائق الدنيا وآفاتها المشوشة لـدوام الأنس بالله تعـالى ولا يحتـاج في تنزيل ذلك

عليه إلى استنباط وتفكر ومهلة بل تسبق المعـاني الغالبة على القلب إلى فهمه مع اللفظ كما روى عن بعض الشيوخ أنه مر في السوق فسمع واحدا يقول الخيار عشرة بحبة فغلبه الوجد فسئل عن ذلك فقال إذا كان الخيار عشـرة بحبة فما قيمة الأشـرار واجتـاز بعضـهم في السوق فسمع قـائلا يقـول يا سـعتر بـرى فغلبه الوجد فقيل له على مـاذا كـان وجـدك فقال سمعته كأنه يقول اسع ترى برى حـتى إن العجمى قد يغلب عليه الوجد على الأبيـات المنظومة بلغة العـرب فـإن بعض حروفها يـوازن الحـروف العجمية فيفهم منها معـان أخر أنشد بعضــهم وما زارني في الليل إلا خياله فتواجد عليه رجل أعجمي فسـئل عن سـبب وجــده فقــال إنه يقــول ما زاريم وهو كما يقــول فــإن لفظ زار يــدل في العجمية على المشرف على الهلاك فتوهم أنه يقول كلنا مشرفون على الهلاك فاستشعر عند ذلك خطر هلاك الآخرة والمحترق في حب الله تعالى وجده بحسب فهمه وفهمه بحسب تخيله وليس من شرط تخيله أن يوافق مراد الشاعر ولغته فهذا الوجد حق وصدق ومن استشـعر خطر هلاك الآخرة فجدير بأن يتشوش عليه عقله وتضطرب عليه اعضاؤه فـإذن ليس في تغيـير أعيان الألفاظ كبير فائدة بل الـذي غلب عشق مخلـوق ينبغي أن يحـترز من السـماع بـأي لفظ كان والذي غلب عليه حب الله تعـالى فلا تضـره الألفـاظ ولا تمنعه عن فهم المعـاني اللطيفة المتعلقة بمجــاري همته الشــريفة العــارض الرابع في المســتمع وهو أن تكــون الشـهوة غالبة عليه وكـان في غـرة الشـباب وكـانت هـذه الصـفة أغلب عليه من غيرها فالسماع حرام عليه سـواء غلب على قلبه حب شـخص معين أو لم يغلب فإنه كيفما كـان فلا يسمع وصف الصدغ والخد والفراق والوصال إلا ويحرك ذلك شهوته وينزله على صورة معينة ينفخ الشيطان بها في قلبه فتشـتعل فيه نـار الشـهوة وتحتد بـواعث الشر وذلك هو النصرة لحزب الشيطان والتخذيل للعقل المانع منه الذي هو حزب اللهتعـالى والقتـال في القلب دائم جنود الشـيطان وهي الشـهوات وبين حـزب الله تعـالى وهو نـور العقل إلا في قلب قد فتحه أحد الجنـــدين واســـتولى عليه بالكلية وغـــالب القلـــوب الآن قد فتحها جند الشيطان وغلب عليها فتحتاج حينئذ إلى أن تسـتأنف أسـباب القتـال لإزعاجها فكيف يجـوز تكثير أسلحتها وتشحيذ سيوفها وأسـنتها والسـماع مشـحذ لأسـلحة جند الشـيطان في حق مثل هذا الشخص فليخرج مثل هذا عن مجمع السماع فإنه يستضر به العارض الخامس أن يكون الشخص من عوام الخلق ولم يغلب عليه حب الله تعـالى فيكـون السـماع له محبوبا ولو غلبت عليه شهوة فيكون في حقه محظـورا ولكنه أبيح في حقه كسـائر أنـواع اللـذات المباحة إلا أنه إذا اتخذه ديدنه وهجيراه وقصر عليه أكثر أوقاته فهذا هو السـفيه الـذي تـرد شهادته فإن المواظبة على اللهو جناية وكما أن الصغيرة بالإصـرار والمداومة تصـير كبـيرة فكـــذلك بعض المباحـــات بالمداومة تصـــير صـــغيرة وهو كالمواظبة على متابعة الزنـــوج والحبشة والنظر إلى لعبهم على الـــدوام فإنه ممنـــوع وإن لم يكن أصـــله ممنوعا إذ فعله رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ومن هـذا القبيل اللعب بالشـطرنج فإنه مبـاح ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة ومهما كان الغرض اللعب والتلـذذ بـاللهو فـذلك إنما يبـاح لما فيه من تـرويح القلب إذ راحة القلب معالجة له في بعض الأوقـات لتنبعث دواعيه فيشتغل في سائر الأوقات بالجد الدنيا كالكسب والتجارة أو في الـدين كالصـلاة والقـراءة واستحســان ذلك فيما بين تضــاعيف الجد كاستحســان الخــال على الخد ولو اســتوعبت الخيلان في الوجه لشوهته فما أقبح ذلك فيعود الحسن قبحا بسـبب الكـثرة فما كل حسن يحسن كثيره ولا كل مباح يبـاح كثـيره بل الخـبز مبـاح والاسـتكثار منه حـرام فهـذا المبـاح كسائر المباحات فإن قلت فقد أدى مساق هذا الكلام إلى أنه مباح في بعض الأحـوال دون بعض فلم أطلقت القـول أولا بالاباحة إذ إطلاق القـول في المفصل بلا أو بنعم خلف وخطأ فاعلم أن هذا غلط لأن الإطلاق إنما يمتنع لتفصيل ينشأ من غير ما فيه النظر فأما ما ينشأ من الأحــوال العارضة المتصــلة به من خــارج فلا يمنع الإطلاق ألا تــرى أنا إذا ســئلنا عن العسل أهو حلال أم لا قلنا إنه حلال على الإطلاق مع أنه حرام على المحرور الذي يستضر به وإذا سـئلنا عن الخمر قلنا إنها حـرام مع إنها تحل لمن غص بلقمة أن يشـربها مهما لم يجد غيرها ولكن هي من حيث إنها خمر حـــرام وإنما ابيحت لعـــارض الحاجة والعسل من حيث إنه عسل حلال وإنما حرم لعارض الضرر وما يكون لعارض فلا يلتفت إليه فـإن الـبيع

حلال ويحرم بعارض الوقوع في وقت النداء يوم الجمعة ونحوه من العوارض والسماع من جملة المباحات من حيث إنه سماع صوت طيب موزون مفهوم وإنما تحريمه لعارض خارج عن حقيقة ذاته فـإذا انكشف الغطـاء عن دليل الإباحة فلا نبـالي بمن يخـالف بعد ظهـور الـدليل وأما الشـافعي رضي الله عنه فليس تحـريم الغنـاء من مذهبه أصلا وقد نص الشافعي وقال في الرجل يتخذه صناعة لا تجوز شهادته وذلك لأنه من اللهو المكروه الذي يشبه الباطل ومن اتخذه صنعة كان منسـوبا إلى السـفاهة وسـقوط المـروءة وإن لم يكن محرما بين التحريم فإن كان لا ينسب نفسه إلى الغناء ولا يؤتى لذلك ولا يـأتى لأجله وإنما يعـرف بأنه قد يطـرب في الحـال فيـترنم بها لم يسـقط هـذا مروءته ولم يبطل شـهادته واستدل بحديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيـان في بيت عائشة رضي الله عنها وقـال يـونس بن عبد الأعلى سألت الشافعي رحمه الله عن إباحة أهل المدينة للسماع فقـال الشـافعي لا أعلم أحدا من علماء الحجاز كره السماع إلا ما كان منه في الأوصاف فأما الحـداء وذكر الأطلال والمرابع وتحسين الصوت بألحان الأشعار فمباح وحيث قـال إنه لهو مكـروه يشـبه الباطل فقوله لهو صحيح ولكن اللهو من حيث إنه لهو ليس بحرام فلعب الحبشة ورقصهم لهو وقد كان صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ولا يكرهه بل اللهو واللغو لا يؤاخذ الله تعالى به إن عنى به أنه فعل ما لا فائدة فيه فإن الإنسان لو وظف على نفسه أن يضع يـده على رأسه في اليوم مائة مرة فهذا عبث لا فائدة له ولا يحرم قـال الله تعـالى لا يؤاخـذكم الله باللغو في أيمانكم فإذا كان ذكر اسم الله تعالى على الشـيء على طريق القسم من غـير عقد عليه ولا تصـميم والمخالفة فيه مع أنه لا فائـدة فيه لا يؤاخذ فكيف يؤاخذ به بالشـعر والـرقص وأما قوله يشـبه الباطل فهـذا لا يـدل على اعتقـاد تحريمه بل لو قـال هو باطل صـريحا لما دل على التحـريم وإنما يـدل على خلـوه عن الفائـدة فالباطل ما لا فائـدة فيه فقـول الرجل لامرأته مثلا بعت نفسي منك وقولها اشـتريت عقد باطل مهما كـان القصد اللعب والمطايبة وليس بحـرام إلا إذا قصد به التمليك المحقق منع الشـرع منه وأما قوله مكـروه فيـنزل بعض المواضع الـتي ذكرتها لك أو يـنزل على التنزيه فإنه نص على إباحة لعب الشطرنج وذكر أنى أكـره لعب وتعليله يـدل عليه فإنه قـال ليس ذلك من عـادة ذوي الدين والمروءة فهذا يـدل على التنزيه ورده الشـهادة بالمواظبة عليه لا يـدل على تحريمه أيضا بل قد ترد الشهادة بالأكل في السـوق وما يخـرم المـروءة بل الحياكة مباحة وليست من صنائع ذوي المروءة وقد ترد شهادة المحترف بالحرفة الخسيسة فتعليله يدل على أنه أراد بالكراهة التنزيه وهـذا هو الظن أيضا بغـيره من كبـار الأئمة وإن أرادوا التحـريم فما ذكرناه حجة عليهم بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجـواب عنها احتجـوا بقوله تعـالى ومن الناس من يشتري لهو الحديث قال ابن مسعود والحسن البصري والنخعي رضي الله عنهم إن لهو الحـديث هو الغنـاء وروت عائشة رضي الله عنها أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم قـال إن الله تعـالى حـرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها حـديث عائشة إن الله حـرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها أخرجه الطـبراني في الأوسط بإسـناد ضـعيف قـال الـبيهقي ليس بمحفوظ فنقول أما القينة فالمراد بها الجارية التي تغني للرجال في مجلس الشـرب وقد ذكرنا أن غناء الأجنبية للفساق ومن يخاف عليهم الفتنة حرام وهم لا يقصـدون بالفتنة إلا ما هو محظـور فأما غنـاء الجارية لمالكها فلا يفهم تحريمه من هـذا الحـديث بل لغـير مالكها سماعها عند عدم الفتنة بدليل ما روي في الصـحيحين من غنـاء الجـاريتين في بيت عائشة رضي الله عنها وأما شراء لهو الحديث بالـدين اسـتبدالا به ليضل به عن سـبيل الله فهو حرام مذموم وليس النزاع فيه وليس كل غنـاء بـدلا عن الـدين مشـترى به ومضلا عن سبيل الله تعالى وهو المراد في الآية ولو قرأ القرآن ليضل به عن سـبيل الله لكـان حراما حكي عن بعض المنافقين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا سـورة عبس لما فيها من العتـاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم عمر بقتله ورأى فعله حراما لما فيه من الإضلال فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم واحتجوا بقوله تعـالى أفمن هـذا الحـديث تعجبـون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون قال ابن عباس رضي الله عنهما هو الغنـاء بلغة حمـير يعني السمد فنقول ينبغي أن يحرم الضحك وعدم البكـاء أيضا لأن الآية تشـتمل عليه فـإن قيل إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم فهذا أيضا مخصـوص بأشـعارهم

وغنائهم في معرض الاستهزاء بالمسلمين كما قال تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون وأراد به شعراء الكفار ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر في نفسه واحتجوا بما روى جابر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى حديث جابر كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى لم أجد له أصلا من حديث جابر وذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرجه ولده في مسنده فقد جمع بين النياحة والغناء قلنا لا جرم كما استثنى منه نياحة داود عليه السلام ونياحة المذنبين على خطاياهم فكذلك يستثنى الغناء الذي يراد به تحريك السرور والحزن والشوق حيث يباح تحريكه بل كما استثنى غناء الجاريتين يوم العيد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وغناؤهن عند قدومه صلى الله عليه وسلم بقولهن طلع البدر علينا من ثنيات الوداع واحتجوا بما روى أبو أمامة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك حديث أبي أمامة ما رفع أحد عقيرته بغناء إلا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والطبراني في الكبير وهو ضعيف قلنا هو منزل على بعض أنواع الغناء الذي قدمناه وهو الذي يحرك من القلب ما هو مراد الشيطان من الشهوة وعشق المخلوقين فأما ما يحرك الشوق إلى الله أو السرور بالعيد أو حدوث الولد أو قدوم الغائب فهذا كله يضاد مراد الشيطان بدليل قصة الجاريتين والحبشة والأخبار التي نقلناها من الصحاح فالتجويز في موضع واحد نص في الإباحة والمنع في ألف موضع محتمل للتأويل ومحتمل للتنزيل أما الفعل فلا تأويل له إذ ما حرم فعله إنما يحل بعارض الإكراه فقط وما أبيح فعله يحرم بعوارض كثيرة حتى النيات والقصود واحتجوا بما روى عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته لامرأته حديث عقبة بن عامر كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته زوجته أخرجه أصحاب السنن الأربعة وفيه اضطراب قلنا فقوله باطل لا يدل على التحريم بل يدل على عدم الفائدة وقد يسلم ذلك على أن التلهي بالنظر إلى الحبشة خارج عن هذه الثلاثة وليس بحرام بل يلحق بالمحصور غير المحصور قياسا كقوله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث حديث لا يحل دم امرئ إلا بإحدى ثلاث متفق عليه من حديث ابن مسعود فإنه يلحق به رابع وخامس فكذلك ملاعبة امرأته لا فائدة له إلا التلذذ وفي هذا دليل على أن التفرج في البساتين وسماع أصوات الطيور وأنواع المداعبات مما يلهو به الرجل لا يحرم عليه شيء منها وإن جاز وصفه بأنه باطل واحتجوا بقول عثمان رضي الله عنه ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني مذ بايعت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا فليكن التمني ومس الذكر باليمنى حراما إن كان هذا دليل تحريم الغناء فمن أين يثبت أن عثمان رضي الله عنه كان لا يترك إلا الحرام واحتجوا بقول ابن مسعود رضي الله عنه الغناء ينبت في القلب النفاق وزاد بعضهم كما ينبت الماء البقلحديث ابن مسعود الغناء ينبت النفاق في القلب ما ينبت الماء البقل قال المصنف والمرفوع غير صحيح لأن في إسناده من لم يسم رواه أبو داود وهو في رواية ابن العبد ليس في رواية اللؤلؤى ورواه البيهقى مرفوعا وموقوفا ورفعه بعضهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غير صحيح قالوا ومر على ابن عمر رضي الله عنهما قوم محرمون وفيهم رجل يتغنى فقال ألا لا أسمع الله لكم ألا لا أسمع الله لكم وعن نافع أنه قال كنت مع ابن عمر رضي الله عنهما في طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه ثم عدل عن الطريق فلم يزل يقول يا نافع أتسمع ذلك حتى قلت لا فأخرج أصبعيه وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعحديث نافع كنت وابن عمر في طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنية الحديث ورفعه أبو داود وقال هذا حديث منكر وقال الفضيل بن عياض رحمه الله الغناء رقية الزنا وقال بعضهم الغناء رائد من رواد الفجور وقال يزيد بن الوليد إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد الشهوة ويهدم المروءة وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعله السكر فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء فإن الغناء داعية الزنا فنقول قول ابن مسعود رضي الله عنه ينبت

النفـاق أراد به في حق المغـنى فإنه في حقه ينبت النفـاق إذ غرضه كله أن يعـرض نفسه على غيره ويروج صـوته عليه ولا يـزال ينـافق ويتـودد إلى النـاس لـيرغبوا في غنائه وذلك أيضا لا يوجب تحريما فإن لبس الثياب الجميلة وركوب الخيل المهملجة وسائر أنواع الزينة والتفـاخر بـالحرث والأنعـام والـزرع وغـير ذلك ينبت في القلب النفـاق والريـاء ولا يطلق القـول بتحـريم ذلك كله فليس السـبب في ظهـور النفـاق في القلب المعاصي فقط بل المباحات التي هي مواقع نظر الخلق أكثر تأثيرا ولذلك نزل عمر رضي الله عنه عن فرس هملج تحته وقطع ذنبه لأنه استشـــعر في نفسه الخيلاء لحسن مطيته فهـــذا النفـــاق من المباحات وأما قول ابن عمر رضي الله عنهما ألا لا أسـمع الله لكم فلا يـدل على التحـريم من حيث إنه غنـــاء بل كـــانوا محـــرمين ولا يليق بهم الـــرفث وظهر له من مخـــايلهم أن سماعهم لم يكن لوجد وشوق إلى زيارة بيت الله تعالى بل لمجرد اللهو فـأنكر ذلك عليهم لكونه منكرا بالإضافة إلي حالهم وحال الإحرام وحكايات الأحوال تكثر فيها وجوه الاحتمـال وأما وضعه أصـبعيه في أذنيه فيعارضه أنه لم يـأمر نافعا بـذلك ولا أنكر عليه سـماعه وإنما فعل ذلك هو لأنه رأى أن ينزه سمعه في الحال وقلبه عن صـوت ربما يحـرك اللهو ويمنعه عن فكر كان فيه أو ذكر هو أولى منه وكـذلك فعل رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم مع أنه لم يمنع ابن عمر لا يدل أيضا على التحريم بل يدل على أن الأولى تركه ونحن نـرى أن الأولى تركه في أكثر الأحوال بل أكثر مباحات الدنيا الأولى تركها إذا علم أن ذلك يـؤثر في القلب فقد خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الصـلاة ثـوب أبي جهم إذ كانت عليه أعلام شغلت قلبه حديث خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفـراغ من الصلاة ثوب أبي جهم إذ كان عليه أعلام شغلت قلبه تقدم في الصلاة أفـترى أن ذلك يـدل على تحـريم الأعلام على الثـوب فلعله صـلى الله عليه وسـلم كـان في حالة كـان صـوت زمارة الراعي يشغله عن تلك الحالة كما شـغله العلم عن الصـلاة بل الحاجة إلى اسـتثارة الأحوال الشريفة من القلب بحيلة السماع قصور بالإضـافة إلى من هو دائم الشـهود للحق وإن كان كمالا بالإضافة إلي غيره ولذلك قال الحصرى مـاذا أعمل بسـماع ينقطع إذا مـات من يسمع منه إشارة إلى أن السماع من الله تعالى هو الدائم فالأنبياء عليهم السـلام على الدوام في لذة السـمع والشـهود فلا يحتـاجون إلى التحريك بالحيلة واما قـول الفضـيل هو رقية الزنا وكـــذلك ما عـــداه من الأقاويل القريبة منه فهو مـــنزل على ســـماع الفســـاق والمغتلمين من الشـبان ولو كـان ذلك عاما لما سـمع من الجـاريتين في بيت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وأما القيـاس فغاية ما يـذكر فيه أن يقـاس على الأوتـار وقد سـبق الفـرق أو يقـال هو لهو ولعب وهو كـذلك ولكن الـدنيا كلها لهو ولعب قـال عمر رضي الله عنه لزوجته إنما أنت لعبة في زاوية البيت وجميع الملاعبة مع النسـاء لهو إلا الحراثة الـتي هي سـبب وجـود الولد وكـذلك المـزح الـذي لا فحش فيه حلال نقل ذلك عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة كما سيأتي تفصيله في كتـاب آفـات اللسـان إن شـاء الله تعالى حديث مزاحه صلى الله عليه وسلم يأتي في آفـات اللسـان كما قـال المصـنف وأي لهو يزيد على لهو الحبشة والزنـوج في لعبهم وقد ثبت بـالنص إباحته على أنى أقـول اللهو مروح للقلب ومخفف عنه أعباء الفكر والقلوب إذا أكـرهت عميت وترويحها إعانة لها على الجد فـالمواظب على التفقة مثلا ينبغي أن يتعطل يـوم الجمعة لأن عطلة يـوم تبعث على النشاط في سائر الأيام والمواظب على نوافل الصلوات في سائر الأوقـات ينبغى أن يتعطل في بعض الأوقـات ولأجله كـرهت الصـلاة في بعض الأوقـات فالعطلة معونة على العمل واللهو معين على الجد ولا يصـبر على الجد المحض والحق المر إلا نفـوس الأنبيـاء عليهم السـلام فـاللهو دواء القلب من داء الإعيـاء والملال فينبغي أن يكـون مباحا ولكن لا ينبغي أن يستكثر منه كما لا يستكثر من الدواء فـإذا اللهو على هـذه النية يصـير قربة هـذا في حق من لا يحرك السماع من قلبه صـفة محمـودة يطلب تحريكها بل ليس له إلا اللـذة والاستراحة المحضة فينبغي أن يستحب له ذلك ليتوصل به إلى المقصود الذي ذكرنـاه نعم هذا يدل على نقصان عن ذروة الكمال فإن الكامل هو الذي لا يحتاج أن يـروح نفسه بغـير الحق ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين ومن أحاط بعلم علاج القلوب ووجوه التلطف بها لسـياقتها إلى الحق علم قطعا أن ترويحها بأمثـال هـذه الأمـور دواء نـافع لا غـنى عنه

الباب الثـاني آثـار السـماع وآدابه اعلم أن أول درجة السـماع فهم المسـموع وتنزيله على معـنى يقع للمسـتمع ثم يثمر الفهم الوجد ويثمر الوجد الحركة بـالجوارح فلينظر في هـذه المقامات الثلاثة المقام الأول في الفهم وهو يختلف باختلاف أحـوال المسـتمع وللمسـتمع أربعة أحـوال احـداها أن يكـون سـماع بمجـرد الطبع أي لاحظ له في السـماع إلا اسـتلذاذ الالحان والنغمات وهذا مبـاح وهو أخسر رتب السـماع إذ الإبل شـريكه له فيه وكـذا سـائر البهائم بل لا يستدعي هذا الذوق إلا الحياة فلكل حيوان نوع تلـذذ بالأصـوات الطيبة الحالة الثانية أن يسمع بفهم ولكن ينزله على صورة مخلوق إما معينا وإما غـير معين وهو سـماع الشـباب وأربـاب الشـهوات ويكـون تـنزيلهم للمسـموع على حسب شـهواتهم ومقتضى أحوالهم وهذه الحالة أخس من أن نتكلم فيها إلا ببيان خستها والنهي عنها الحالة الثالثة أن ينزل ما يسـمعه على أحـوال نفسه في معاملته لله تعـالى وتقلب أحواله في التمكن مـرة والتعـذر أخـرى وهـذا سـماع المريـدين لا سـيما المبتـدئين فـإن للمريد لا محالة مـرادا هو مقصـده ومقصـده معرفة الله سـبحانه ولقـاؤه والوصـول إليه بطريق المشـاهدة بالسر وكشف الغطـاء وله في مقصـده طريق هو سـالكه ومعـاملات هو مثـابر عليها وحـالات تسـتقبله في معاملاته فـإذا سـمع ذكر عتـاب أو خطـاب أو قبـول أو رد أو وصل أو هجر أو قرب أو بعد أو تلهف على فائت أو تعطش إلى منتظر أو شـوق إلى وارد أو طمع أو يـأس أو وحشة أو استئناس أو وفاء بالوعد أو نقض للعهد أو خوف فراق أو فـرح بوصـال أو ذكر ملاحظة الحبيب ومدافعة الرقيب أو همول العبرات أو ترادف الحسـرات أو طـول الفـراق أو عدة الوصال أو غير ذلك مما يشتمل على وصـفه الأشـعار فلا بد أن يوافق بعضـها حـال المريد في طلبه فيجرى ذلك مجرى القدح الذي يورى زناد قلبه فتشـتعل به نيرانه ويقـوي به انبعاث الشوق وهيجانه ويهجم عليه بسببه أحوال مخالفة لعادته ويكـون له مجـال رحب في تنزيل الألفـاظ على أحواله وليس على المسـتمع مراعـاة مـراد الشـاعر من كلامه بل لكل كلام وجوه ولكل ذي فهم في اقتباس المعنى منه حظـوظ ولنضـرب لهـذه التـنزيلات والفهـوم أمثلة كي لا يظن الجاهل أن المسـتمع لأبيـات فيها ذكر الفم والخد والصـدغ إنما يفهم منها ظواهرها ولا حاجة بنا إلى ذكر كيفية فهم المعاني من الأبيات ففي حكايات أهل السماع ما يكشف عن ذلك فقد حكى أن بعضهم سمع قائلا يقول قال الرسـول غـدا تـزور فقلت تعقل ما تقول فاستفزه اللحن والقول وتواجد وجعل يكـرر ذلك ويجعل مكـان التـاء نونا فيقول قال الرسول غدا نزور حتى غشى عليه من شدة الفـرح واللـذة والسـرور فلما أفاق سئل عن وجده مم كان فقـال ذكـرت قـول الرسـول صـلى الله عليه وسـلم إن أهل الجنة يـزورون ربهم في كل يـوم جمعة مـرة حـديث إن أهل الجنة يـزورون ربهم في كل جمعة أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وفيه عبد الحميد ابن حبيب بن أبي العشرين مختلف فيه وقـال الترمـذي لا نعرفه إلا من هـذا الوجه قـال وقد روى سـويد بن عمـرو عن الاوزاعي شـيئا من هـذا وحكى الـرقي عن ابن الـدراج أنه قـال كنت أنا وابن الفوطى مارين على دجلة بين البصرة والأبلة فـإذا بقصر حسن له منظـرة وعليه رجل بين يديه جارية تغني وتقول كل يوم تتلون غير هذا بك أحسن فإذا شـاب حسن تحت المنظـرة وبيده ركـوة وعليه مرقعة يسـتمع فقـال يا جارية بالله وبحيـاة مـولاك إلا أعـدت على هـذا البيت فأعادت فكان الشاب يقول هذا والله تلوني مع الحق في حالي فشهق شهقة ومات قال فقلنا قد استقبلنا فرض فوقفنا فقال صاحب القصر للجارية أنت حرة لوجه الله تعالى قال ثمإن أهل البصرة خرجوا وهذا القصر للسبيل قال ثم رمى بثيابه واتـزر بـإزار وارتـدى بآخر ومر على وجهه والناس ينظرون إليه حتى غاب عن أعينهم وهم يبكون فلم يسـمع له بعد خبر والمقصود أن هـذا الشـخص كـان مسـتغرق الـوقت بحاله مع الله تعـالى ومعرفة عجزه عن الثبوت على حسن الأدب في المعاملة وتأسفه على تقلب قلبه وميله عن سـنن الحق فلما قرع سمعه ما يوافق حاله سمعه من الله تعالى كأنه يخاطبه ويقول له كل يوم تتلون غير هذا بك أحسن ومن كان سماعه من الله تعالى وعلى الله وفيه فينبغي أن يكون قد أحكم قانون العلم في معرفة الله تعـالى ومعرفة صـفاته وإلا خطر له من السـماع في حق الله تعالى ما يستحيل عليه ويكفر به ففي سماع المريد المبتدئ خطر إلا إذا لم يـنزل ما يسـمع إلا على حاله من حيث لا يتعلق بوصف الله تعـالى ومثـال الخطأ فيه هـذا الـبيت

بعينه فلو سـمعه في نفسه وهو يخـاطب به ربه عز وجل فيضـيف التلـون إلى الله تعـالى فيكفر وهذا قد يقع عن جهل محض مطلق غير ممزوج بتحقيق وقد يكـون عن جهل سـاقه إليه نوع من التحقيق وهو أن يرى تقلب أحوال قلبه بل تقلب أحوال سـائر العـالم من الله وهو حق فإنه تارة يبسط قلبه وتارة يقبضه وتارة ينوره وتـارة يظلمه وتـارة يقسـيه وتـارة يلينه وتارة يثبته على طاعته ويقويه عليها وتارة يسـلط الشـيطان عليه ليصـرفه عن سـنن الحق وهذا كله من الله تعالى ومن يصدر منه أحوال مختلفة في أوقات متقاربة فقد يقـال له في العـادة إنه ذو بـداوات وإنه متلـون ولعل الشـاعر لم يـرد به إلا نسـبة محبوبه إلى التلون في قبوله ورده وتقريبه وإبعـاده وهـذا هو المعـنى فسـماع هـذا كـذلك في حق الله تعـالى كفر محض بل ينبغي أن يعلم انه سـبحانه وتعـالى يلـون ولا يتلـون ويغـير ولا يتغـير بخلاف عبـاده وذلك العلم يحصل للمريد بإعتقـاد تقليـدي إيمـاني ويحصل للعـارف البصـير بيقين كشـفي حقيقي وذلك من أعـاجيب أوصـاف الربوبية وهو المغـير من غـير تغـير ولا يتصـور ذلك إلا في حق الله تعـالى بل كل مغـير سـواه فلا يغـير ما لم يتغـير ومن أربـاب الوجد من يغلب عليه حـال مثل السـكر المـدهش فيطلق لسـانه بالعتـاب مع الله تعـالى ويستنكر اقتهاره للقلوب وقسمته للأحوال الشريفة على تفـاوت فإنه المستصـفى لقلـوب الصـديقين والمبعد لقلـوب الجاحـدين والمغـرورين فلا مـانع لما أعطى ولا معطي لما منع ولم يقطع التوفيق عن الكفـار لجناية متقدمة ولا أمد الأنبيـاء عليهم السـلام بتوفيقه ونـور هدايته لوسيلة سابقة ولكنه قال ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين وقال عز وجل ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وقال تعـالى إن الـذين سـبقت لهم منا الحسـنى أولئك عنها مبعـدون فـإن خطر ببالك أنه لم اختلفت السـابقة وهم في ربقه العبودية مشتركون نوديت من سرادقات الجلال لا تجاوز حد الأدب فإنه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ولعمري تأدب اللسان والظاهر مما يقدر عليه الأكثرون فأما تـأدب السر عن إضمار الاستبعاد بهذا الاختلاف الظـاهر في التقـريب والإبعـاد والإشـقاء والإسـعاد مع بقـاء السعادة والشـقاوة أبد الآبـاد فلا يقـوى عليه إلا العلمـاء الراسـخون في العلم ولهـذا قـال الخضر عليه السلام لما سئل عن السماع في المنام إنه الصـفو الـزلال الـذي لا يثبت عليه إلا أقـدام العلمـاء لأنه محـرك لأسـرار القلـوب ومكامنها ومشـوش لها تشـويش السـكر المـدهش الـذي يكـاد يحل عقـدة الأدب عن السر إلا ممن عصـمه الله تعـالى بنـور هدايته ولطيف عصمته ولذلك قال بعضهم ليتنا نجونا من هذا السماع رأسا بـرأس ففي هـذا الفن من السماع خطر يزيد على خطر السـماع المحـرك للشـهوة فـإن غاية ذلك معصـية وغاية الخطأ ههنا كفر واعلم أن الفهم قد يختلف بأحوال المسـتمع فيغلب الوجد على مسـتمعين لبيت واحد واحدهما مصيب في الفهم والآخر مخطىءأو كلاهما مصـيبان وقد فهما معنـيين مختلفين متضـــادين ولكنه بالإضـــافة إلى اختلاف احوالهما لا يتنـــاقض كما حكى عن عتبة الغلام انه سمع رجلا يقول سبحان جبار السـما إن المحب لفي عنا فقـال صـدقت وسـمعه رجل آخر فقـال كـذبت فقـال بعض ذوي البصـائر أصـابا جميعا وهو الحق فالتصـديق كلام محب غـير ممكن من المـراد بل مصـدود متعب بالصد والهجر والتكـذيب كلام مسـتأنس بالحب مستلذ لما يقاسيه بسـبب فـرط حبه غـير متـأثر به أو كلام محب غـير مصـدود عن مراده في الحال ولا مستشعر بخطر الصد في المـآل وذلك لاسـتيلاء الرجـاء وحسن الظن على قلبه فباختلاف هذه الأحوال يختلف الفهم وحكى عن أبي القاسم بن مروان وكـان قد صحب أبا سعيد الخراز رحمه الله وترك حضـور السـماع سـنين كثـيرة فحضر دعـوة وفيها إنسان يقول واقف في الماء عطشان ولكن ليس يسقى فقام القوم وتواجدوا فلما سكنوا سألهم عن معنى ما وقع لهم من معنى البيت فأشاروا إلى التعطش إلى الأحوال الشـريفة والحرمان منها مع حضور أسبابها فلم يقنعه ذلك فقالوا له فماذا عندك فيه فقال أن يكـون في وسط الأحـوال ويكـرم بالكرامـات ولا يعطى منها ذرة وهـذه إشـارة إلى إثبـات حقيقة وراء الأحوال والكرامات والاحوال سوابقها والكرامـات تسـنح في مباديها والحقيقة بعد لم يقع الوصـول إليها ولا فـرق بين المعـنى الـذي فهمه وبين ما ذكـروه إلا في تفـاوت رتبة المتعطش إليه فـإن المحـروم عن الأحـوال الشـريفة أولا يتعطش إليها فـإن مكن منها تعطش إلى ما وراءها فليس بين المعنـيين اختلاف في الفهم بل الاختلاف بين الرتبـتين

وكان الشبلى رحمه الله كثيرا ما يتواجد على هذا البيت ودادكم هجر وحبكم قلى ووصلكم صرم وسلمكم حرب وهذا البيت يمكن سماعه على وجوه مختلفة وبعضها حق وبعضها باطل وأظهرها أن يفهم هذا في الخلق بل في الدنيا بأسرها بل في كل ما سوى الله تعالى فإن الدنيا مكارة خداعة قتالة لأربابها معادية لهم في الباطن ومظهرة صورة الود فما امتلأت منها دار حبرة إلا امتلأت عبرة حديث ما امتلأت دار منها حبرة إلا امتلأت عبرة أخرجه ابن المبارك عن عكرمة بن عمار عن يحيى بن أبي كثير مرسلا كما ورد في الخبر وكما قال الثعلبي في وصف الدنيا تنح عن الدنيا فلا تخطبنها ولا تخطبن قتالة من تناكح فليس يفي مرجوها بمخوفها ومكروهها أما تأملت راجح لقد قال فيها الواصفون فأكثروا وعندي لها وصف لعمري صالح سلاف قصاراها زعاف ومركب شهى إذا استذللته فهو جامح وشخص جميل يؤثر الناس حسنه ولكن له أسرار سوء قبائح والمعنى الثاني أن ينزله على نفسه في حق الله تعالى فإنه إذا تفكر فمعرفته جهل إذ ما قدروا الله حق قدره وطاعته رياء إذ لا يتقي الله حق تقاته وحبه معلول إذ لا يدع شهوة من شهواته في حبه ومن أراد الله به خيرا بصره بعيوب نفسه فيرى مصداق هذا البيت في نفسه وإن كان على المرتبة بالإضافة إلى الغافلين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك حديث لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك رواه مسلم وقد تقدم وقال صلى الله عليه وسلم إني لاستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة حديث إني لاستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة تقدم في الباب الثاني من الاذكار وإنما كان استغفاره عن أحوال هي درجات بعد بالإضافة إلى ما بعدها وإن كانت قربا بالإضافة إلى ما قبلها فلا قرب إلا ويبقى وراءه قرب لا نهاية له إذ سبيل السلوك إلى الله تعالى غير متناه والوصول إلى أقصى درجات القرب محال والمعنى الثالث أن ينظر في مبادئ أحواله فيرتضيها ثم ينظر في عواقبها فيزدريها لاطلاعه على خفايا الغرور فيها فيرى ذلك من الله تعالى فيستمع البيت في حق الله تعالى شكاية من القضاء والقدر وهذا كفر كما سبق بيانه وما من بيت إلا ويمكن تنزيله على معان وذلك بقدر غزارة علم المستمع وصفاء قلبه الحالة الرابعة سماع من جاوز الأحوال والمقامات فعزب عن فهم ما سوى الله تعالى حتى عزب عن نفسه واحوالها ومعاملاتها وكان كالمدهوش الغائص في بحر عين الشهود الذي يضاهي حاله حال النسوة اللاتي قطعن ايديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دهشن وسقط احساسهن وعن مثل هذه الحالة تعبر الصوفية بأنه قد فنى عن نفسه ومهما فنى عن نفسه فهو عن غيره أفنى فكأنه فنى عن كل شيء إلا عن الواحد المشهود وفنى أيضا عن الشهود فإن القلب أيضا إذا التفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مشاهد فقد غفل عن المشهود فالمستهتر بالمرئي لا التفات له في حال استغراقه إلى رؤيته ولا إلى عينه التي بها رؤيته ولا إلى قلبه الذي به لذته فالسكران لا خبر له من سكره والمتلذذ لا خبر له من التذاذه وإنما خبره من المتلذذ به فقط ومثاله العلم بالشيء فإنه مغاير للعلم في حق المخلوق وتطرأ أيضا في حق الخالق ولكنها في الغالب تكن كالبرق الخاطف الذي لا يثبت ولا يدوم وإن دام لم تطقه القوة البشرية فربما اضطرب تحت أعبائه اضطرابا تهلك به نفسه كما روي عن أبي الحسن النوري أنه حضر مجلسا فسمع هذا البيت ما زلت أنزل من ودادك منزلا تتحير الالباب عند نزوله فقام وتواجد وهام على وجهه فوقع في أجمة قصب قد قطع وبقيت أصوله مثل السيوف فصار يعدو فيها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يخرج من رجليه حتى ورمت قدماه وساقاه وعاش بعد ذلك أياما ومات رحمه الله فهذه درجة الصديقين في الفهم والوجد فهي أعلى الدرجات لأن السماع على الأحوال نازل عن درجات الكمال وهي ممتزجة بصفات البشرية وهو نوع قصور وإنما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه واحواله أعنى أنه ينساها فلا يبقى له التفات إليها كما لم يكن للنسوة التفات إلى الأيدي والسكاكين فيسمع لله وبالله وفي الله ومن الله وهذه رتبة من خاض لجة الحقائق وعبر ساحل الأحوال والأعمال واتحد بصفاء التوحيد وتحقق بمحض الإخلاص فلم يبق فيه منه شيء أصلا بل خمدت بالكلية بشريته وفنى التفاته إلى صفات البشرية رأسا ولست أعنى بفنائه فناء جسده بل فناء قلبه ولست أعنى بالقلب اللحم والدم بل سر لطيف له إلى القلب الظاهر نسبة خفية

وراءها سر الروح الذي هو من أمر الله عز وجل عرفها من عرفها وجهلها من جهلها ولذلك السر وجــود وصــورة ذلك الوجــود ما يحضر فيه فــإذا حضر فيه غــيره فكأنه لا وجــود إلا للحاضر ومثاله المــرآة المجلــوة إذ ليس لها لــون في نفســها بل لونها لــون الحاضر فيها وكــذلك الزجاجة فإنها تحكي لــون قرارها ولونها لــون الحاضر فيها وليس لها في نفســها صورة بل صورتها قبول الصور ولونها هو هيئة الاسـتعداد لقبـول الألـوان ويعـرب عن هـذه الحقيقة أعنى سر القلب بالإضافة إلى ما يحضر فيه قول الشاعر رق الزجاج ورقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قـدح ولا خمر وهـذا مقـام من مقامـات علوم المكاشفة منه نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد وقال أنا الحق وحوله يدندن كلام النصارى في دعوى اتحـاد اللاهـوت بالناسـوت أو تـدرعها بها أو حلولها فيها على ما اختلف فيهم عباراتهم وهو غلط محض يضاهي غلط من يحكم على المرآة بصورة الحمرة إذ ظهر فيها لون الحمرة مقابلها وإذا كان هذا لا غـير لائق بعلم المعاملة فلـنرجع إلى الغـرض فقد ذكرنا تفــاوت الــدرجات في فهم المســموعات المقــام الثــاني بعد الفهم والتنزيل الوجد وللناس كلام طويل في حقيقة الوجد أعنى الصوفية والحكمـاء النـاظرين في وجه مناسـبة السـماع للأرواح فلننقل من اقـوالهم الفاظا ثم لنكشف عن الحقيقة فيه أما الصـوفية فقد قال ذو النون المصري رحمه الله في السـماع انه وارد حق جـاء يـزعج القلـوب إلى الحق فمن أصغى إليه بحق تحقق ومن أصـغى إليه بنفس تزنـدق فكأنه عـبر عن الوجد بانزعـاج القلوب إلى الحق وهو الذي يجده عند ورود وارد السماع إذ سمى السماع وارد حق وقــال أبو الحسين الدراج مخبرا عما وجده في السماع الوجد عبارة عما يوجد عند السماع وقـال جـال بي السـماع في ميـادين البهـاء فاوجـدني وجـود الحق عند العطـاء فسـقاني بكـأس الصفاء فادركت به منازل الرضاء واخرجني إلى رياض التنزه والفضاء وقال الشـبلي رحمه الله السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة فمن عرف الاشارة حل له استماع العبــارة وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية وقال بعضهم السماع غــذاء الأرواح لأهل المعرفة لأنه وصف يدق عن سـائر الأعمـال ويـدرك برقة الطبع لرقته وبصـفاء السر لصـفائه ولطفه عند أهله وقــال عمــرو بن عثمــان المكي لا يقع على كيفية الوجد عبــارة لأنه سر الله عند عبــاده المؤمنين الموقنين وقال بعضهم الوجد مكاشفات من الحق وقـال أبو سـعيد بن الأعـرابي الوجد رفع الحجــاب ومشــاهدة الــرقيب وحضــور الفهم وملاحظة الغيب ومحادثة السر وايناس المفقـود وهو فنـاؤك من حيث أنت وقـال أيضا الوجد أول درجـات الخصـوص وهو مـيراث التصـديق بـالغيب فلما ذاقـوه وسـطع في قلـوبهم نـوره زال عنهم كل شك وريب وقال أيضا الذي يحجب عن الوجد رؤية آثار النفس والتعلق بالعلائق والاسـباب لأن النفس محجوبة بأسـبابها فـإذا انقطعت الأسـباب وخلص الـذكر وصـحا القلب ورق وصـفا ونجحت الموعظة فيه وحل من المناجـاة في محل قـريب وخـوطب وسـمع الخطـاب بـأذن واعية وقلب شـاهد وسر ظـاهر فشـاهد ما كـان منه خاليا فـذلك هو الوجد لأنه قد وجد ما كـان معدوما عنده وقال أيضا الوجد ما يكون عند ذكر مـزعج أو خـوف مقلق أو تـوبيخ على زلة أو محادثة بلطيفة أو إشارة إلى فائدة أو شوق إلى غائب أو اسف على فائت أو نــدم على ماض أو استجلاب إلى حال أو داع إلى واجب أو مناجـاة بسر وهو مقابلة الظـاهر بالظـاهر والباطن بالباطن والغيب بالغيب والسر بالسر واستخراج مالك بما عليك مما سبق للسعي فيه فيكتب ذلك لك بعد كونه منك فيثبت لك قدم بلا قدم وذكر بلا ذكر إذ كان هو المبتــدئ بـالنعم والمتـولى وإليه يرجع الأمر كله فهـذا ظـاهر علم الوجد وأقـوال الصـوفية من هـذا الجنس في الوجد كثيرة وأما الحكماء فقال بعضهم في القلب فضيلة شريفة لم تقدر قـوة النطق على إخراجها باللفظ فأخرجتها النفس بالالحـان فلما ظهـرت سـرت وطـربت إليها فاستمعوا من النفس وناجوها ودعوا مناجاة الظواهر وقال بعضهم نتائج السماع اسـتنهاض العاجز من الرأي واستجلاب العازب من الافكار وحدة الكال من الافهام والآراء حتى يثـوب ما عزب وينهض ما عجز ويصفو ما كدر ويمرح في كل رأى ونية فيصيب ولا يخطىء ويأتي ولا يبطىء وقال آخر كما أن الفكر يطرق العلم إلى المعلـوم فالسـماع يطـرق القلب إلى العـالم الروحـاني وقـال بعضـهم وقد سـئل عن سـبب حركة الأطـراف بـالطبع على وزن الألحــان والإيقاعــات فقــال ذلك عشق عقلي والعاشق العقلي لا يحتــاج إلى أن ينــاغي

معشوقه بـالمنطق الجـرمي بل يناغيه ويناجيه بالتبسم واللحظ والحركة اللطيفة بالحـاجب والجفن والإشـارة وهـذه نواطق أجمع إلا أنها روحانية وأما العاشق البهيمي فإنه يسـتعمل المنطق الجرمي ليعبر به عن ثمرة ظاهر شـوقه الضـعيف وعشـقه الزائف وقـال آخر من حزن فليسمع الألحـان فـإن النفس إذا دخلها الحـزن خمد نورها وإذا فـرحت اشـتعل نورها وظهر فرحها فيظهر الحنين بقدر قبول القابل وذلك بقدر صفائه ونقائه من الغش والدنس والأقاويل المقـررة في السـماع والوجد كثـيرة ولا معـنى للاسـتكثار من إيرادها فلنشـتغل بتفهيم المعنى الذي الوجد عبارة عنه فنقول إنه عبـارة عن حالة يثمرها السـماع وهو وارد حق جديد عقيب السماع يجـده المسـتمع من نفسه وتلك الحالة لا تخلو عن قسـمين فإنها إما أن ترجع إلى مكاشفات ومشاهدات هي من قبيل العلوم والتنبيهـات وإما أن ترجع إلى تغـيرات وأحـوال ليست من العلـوم بل هي كالشـوق والخـوف والحـزن والقلق والسـرور والاسف والندم والبسط والقبض وهذه الأحوال يهيجها السـماع ويقويها فـإن ضـعف بحيث لم يـؤثر في تحريك الظـاهر أو تسـكينه أو تغيـير حاله حـتى يتحـرك على خلاف عادته أو يطـرق أو يسـكن عن النظر والنطق والحركة على خلاف عادته لم يسم وجـدا وإن ظهر على الظاهرسـمى وجـدا إما ضـعيفا وإما قويا بحسب ظهـوره وتغيـيره للظـاهر وتحريكه بحسب قـوة وروده وحفظ الظـاهر عن التغيـير بحسب قـوة الواجد وقدرته على ضـبط جوارحه فقد يقوى الوجد في الباطن ولا يتغير الظـاهر لقـوة صـاحبه وقد لا يظهر لضـعف الـوارد وقصـوره عن التحريك وحل عقد التماسك وإلى معـنى الأول أشـار أبو سـعيد بن الأعرابي حيث قال في الوجد إنه مشاهدة الرقيب وحضـور الفهم وملاحظة الغيب ولا يبعد أن يكون السماع سببا لكشف ما لم يكن مكشـوفا قبله فـإن الكشف يحصل بأسـباب منها التنبيه والسماع منبه ومنها تغـير الأحـوال ومشـاهدتها وإدراكها فـإن إدراكها نـوع علم يفيد ايضـاح أمـور لم تكن معلومة قبل الـورود ومنها صـفاء القلب والسـماع يـؤثر في تصـفية القلب والصفاء يسبب الكشف ومنها انبعـاث نشـاط القلب بقـوة السـماع فيقـوى به على مشاهدة ما كان تقصر عنه قبل ذلك قوته كما يقوى البعير على حمل ما كان لا يقوى عليه قبله وعمل القلب الاستكشاف وملاحظة أسرار الملكوت كما أن عمل البعير حمل الأثقـال فبواسـطة هـذه الأسـباب يكـون سـببا للكشف بل القلب إذا صـفا ربما يمثل له الحق في صـورة مشـاهدة أو في لفظ منظـوم يقـرع سـمعه يعـبر عنه بصـوت الهـاتف إذا كـان في اليقظة وبالرؤيا إذا كـان في المنـام وذلك جـزء من سـتة وأربعين جـزءا من النبـوة وعلم تحقيق ذلك خـارج عن علم المعاملة وذلك كما روى عن محمد بن مسـروق البغـدادي أنه قال خرجت ليلة في أيام جهالتي وأنا نشوان وكنت أغنى هذا الـبيت بطـور سـيناء كـرم ما مررت به إلا تعجبت ممن يشرب الماء فسمعت قائلا يقول وفي جهنم مـاء ما تجرعه خلق فأبقى له في الجوف أمعاء قال فكان ذلك سبب توبتي واشـتغالي بـالعلم والعبـادة فـانظر كيف أثر الغناء في تصفية قلبه حتى تمثل له حقيقة الحق في صفة جهنم في لفظ مفهـوم موزون وقـرع ذلك سـمعه الظـاهر وروى عن مسـلم العبـاداني انه قـال قـدم علينا صـالح المري وعتبة الغلام وعبد الواحد بن زيد ومسلم الأسواري فنزلوا على الساحل قال فهيأت لهم ذات ليلة طعاما فدعوتهم إليه فجاؤا فلما وضعت الطعـام بين أيـديهم إذا بقائل يقـول رافعا صوته هذا البيت وتلهيك عن دار الخلود مطاعم ولذة نفس غيها غير نافع قـال فصـاح عتبة الغلام صيحة وخر مغشيا عليه وبكى القوم فرفعت الطعام وما ذاقـوا والله منه لقمة وكما يسـمع صـوت الهـاتف عند صـفاء القلب فيشـاهد أيضا بالبصر صـورة الخضر عليه السـلام فإنه يتمثل لأربـاب القلـوب بصـور مختلفة وفي مثل هـذه الحالة تتمثل الملائكة للأنبيـاء عليهم السـلام إما على حقيقة صـورتها وإما على مثـال يحـاكي صـورتها بعض المحاكاة وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام مرتين في صورته وأخبر عنه بأنه سد الأفق حديث رأى جبريل عليه السلام مرتين في صـورته فـأخبر أنه سد الأفق متفق عليه من حديث عائشة وهو المـراد بقوله تعـالى علمه شـديد القـوى ذو مـرة فاستوى وهو بالافق الأعلى إلى آخر هـذه الآيـات وفي مثل هـذه الأحـوال من الصـفاء يقع الاطلاع على ضـمائر القلـوب وقد يعـبر عن ذلك الاطلاع بـالتفرس ولـذلك قـال صـلى الله عليه وسـلم اتقـوا فراسة المـؤمن فإنه ينظر بنـور الله حـديث اتقـوا فراسة المـؤمن فإنه

ينظر بنور الله تعالى أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقـال حـديث غـريب وقد حكى أن رجلا من المجوس كان يدور على المسلمين ويقول ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم اتقـوا فراسة المـؤمن فكـان يـذكر له تفسـيره فلا يقنعه ذلك حـتى انتهى إلى بعض المشايخ من الصوفية فسأله فقال له معناه أن تقطع الزنار الذي على وسـطك تحت ثوبك فقال صدقت هذا معناه وأسـلم وقـال الآن عـرفت أنك مـؤمن وأن إيمانك حق وكما حكى عن إبـراهيم الخـواص قـال كنت ببغـداد في جماعة من الفقـراء في الجـامع فأقبل شـاب طيب الرائحة حسن الوجه فقلت لأصحابي يقع لي أنه يهـودي فكلهم كرهـوا ذلك فخـرجت وخرج الشاب ثم رجع إليهم وقال أي شيء قال الشيخ في فاحتشموه فـألح عليهم فقـالوا له قالإنك يهودي قال فجاءني وأكب على يدي وقبل رأسي وأسـلم وقـال نجد في كتبنا أن الصديق لا تخطىء فراسته فقلت أمتحن المسلمين فتـأملتهم فقلت إن كـان فيهم صـديق ففي هذه الطائفة لأنهم يقولـون حديثه سـبحانه ويقـرءون كلامه فلبست عليكم فلما اطلع على الشيخ وتفرس في علمت أنه صديق قال وصار الشـاب من كبـار الصـوفية وإلى مثل هذا الكشف الاشارة بقوله عليع السلام لـولا أن الشـياطين يحومـون على قلـوب بـني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء حديث لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظـروا إلى ملكـوت السـماء تقـدم في الصـوم وإنما تحـوم الشـياطين على القلـوب إذا كـانت مشـحونة بالصـفات المذمومة فإنها مـرعى الشـيطان وجنـده ومن خلص قلبه من تلك الصـفات وصـفاه لم يطف الشـيطان حـول قلبه وإليه الاشـارة بقوله تعالىإلا عبـادك منهم المخلصين وبقوله تعالى إن عبادي ليس لك عليهم سلطان والسـماع سـبب لصـفاء القلب وهو شبكة للحق بواسطة الصفاء وعلى هذا يدل ما روى أن ذا النـون المصـري رحمه الله دخل بغداد فاجتمع إليه قوم من الصوفية ومعهم قوال فاسـتأذنوه في أن يقـول لهم شـيئا فأذن لهم في ذلك فأنشأ يقـول صـغير هـواك عـذبني فكيف به إذا احتنكا وأنت جمعت في قلبي هوى قد كان مشتركا أما ترثى لمكتئب إذا ضحك الخلى بكى فقام ذو النـون وسـقط على وجهه ثم قام رجل آخر فقال ذو النون الذي يراك حين تقوم فجلس ذلك الرجل وكان ذلك اطلاعا من ذي النون على قلبه أنه متكلف متواجد فعرفه أن الذي يراه حين يقـوم هو الخصم في قيامه لغـير الله تعـالى ولو كـان الرجل صـادقا لما جلس فـإذا قد رجع حاصل الوجد إلى مكاشـفات والى حـالات واعلم أن كل واحد منهما ينقسم إلى ما يمكن التعبـير عنه عند الافاقة منه وإلى ما لا تمكن العبارة عنه أصلا ولعلك تسـتبعد حالة أو علما لا تعلم حقيقته ولا يمكن التعبــير عنه عن حقيقته فلا تســتبعد ذلك فإنك تجد في أحوالك القريبة لذلك شواهد أما العلم فكم من فقيه تعرض عليه مسألتان متشابهتان في الصورة ويـدرك الفقيه بذوقه أن بينهما فرقا في الحكم وإذا كلف ذكر وجه الفرق لم يساعده اللسان على التعبير وإن كان من أفصح الناس فيدرك بذوقه الفرق ولا يمكنه التعبير عنه وإدراكه الفرق علم يصـادفه في قلبه بالـذوق ولا يشك في أن لوقوعه في قلبه سـببا وله عند الله تعـالى حقيقة ولا يمكنه الأخبار عنه لا لقصـور في لسـانه بل لدقة المعـنى في نفسه عن أن تناله العبارة وهذا مما قد تفطن له المواظبون على النظر في المشـكلات وأما الحـال فكم من إنسان يدرك في قلبه في الوقت الذي يصبح فيه قبضا أو بسـطا ولا يعلم سـببه وقد يتفكر إنسان في شيء فيؤثر في نفسه اثر فينسى ذلك السبب ويبقى الأثر في نفسه وهو يحس به وقد تكون الحالة التي يحسها سرورا ثبت في نفسه بتفكره في سـبب مـوجب للسـرور أو حزنا فينسى المتفكر فيه ويحس بالأثر عقيبه وقد تكون تلك الحالة حالة غريبة لا يعـرب عنها لفظ السرور والحـزن ولا يصـادف لها عبـارة مطابقة مفصـحة عن المقصـود بل ذوق الشـعر المـوزون والفـرق بينه وبين غـير المـوزون يختص به بعض النـاس دون بعض وهي حالة يدركها صاحب الـذوق بحيث لا يشك فيها أعـني التفرقة بين المـوزون والمـنزحف فلا يمكنه التعبير عنها بما يتضح مقصوده لمن لا ذوق له وفي النفس أحوال غريبة هذا وصـفها بل المعـاني المشـهورة من الخـوف والحـزن والسـرور إنما تحصل في السـماع عن غنـاء مفهوم وأما الأوتار وسائر النغمات التي ليست مفهومة فإنها تـؤثر في النفس تـأثيرا عجيبا ولا يمكن التعبير عن عجائب تلك الآثار وقد يعبر عنها بالشوق ولكن شوق لا يعرف صـاحبه المشتاق إليه فهو عجيب والذي اضطرب قلبه بسماع الأوتار أو الشـاهين وما أشـبهه ليس

يدري إلى ماذا يشتاق ويجد في نفسه حالة كأنها تتقاضى امرا ليس يـدري ما هو حـتى يقع ذلك للعـوام ومن لا يغلب على قلبه لا حب آدمي ولا حب الله تعـالى وهـذا له سر وهو أن كل شوق فله ركنان أحـدهما صـفة المشـتاق وهو نـوع مناسـبة مع المشـتاق إليه والثـاني معرفة المشتاق إليه ومعرفة صورة الوصول إليه فإن وجدت الصفة التي بها الشوق ووجد العلم بصورة المشتاق إليه كان الأمر ظاهرا وإن لم يوجد العلم بالمشتاق ووجـدت الصـفة المشوقة وحركت قلبك الصفة واشـتعلت نارها اورث ذلك دهشة وحـيرة لا محالة ولو نشأ آدمي وحده بحيث لم ير صورة النساء ولا عرف صورة الوقـاع ثم راهق الحلم وغلبت عليه الشهوة لكان يحس من نفسه بنار الشهوة ولكن لا يدري انه يشـتاق إلى الوقـاع لأنه ليس يدري صورة الوقاع ولا يعرف صـورة النسـاء فكـذلك في نفسه الآدمي مناسـبة مع العـالم الأعلى واللذات التي وعد بها في سدرة المنتهى والفراديس العلا إلا أنه لم يتخيل من هـذا الأمور إلا الصفات والاسماء كالذي سمع لفظ الوقاع واسم النساء ولم يشاهد صورة امرأة قط ولا صـورة رجل ولا صـورة نفسه في المـرآة ليعـرف بالمقايسة فالسـماع يحـرك منه الشوق والجهل المفرط والاشـتغال بالـدنيا قد أنسـاه نفسه وأنسـاه ربه وأنسـاه مسـتقره الذي إليه حنينه واشـتياقه بـالطبع فيتقاضـاه قلبه أمـرا ليس يـدري ما هو فيـدهش ويتحـير ويضطرب ويكون كالمختنق الذي لا يعرف طريق الخلاص فهذا وامثاله من الأحوال التي لا يـدرك تمـام حقائقها ولا يمكن المتصف بها أن يعـبر عنها فقد ظهر انقسـام الوجد إلى ما يمكن إظهـــاره والى ما لا يمكن إظهـــاره واعلم أيضا أن الوجد ينقسم إلى هـــاجم والى متكلف ويسـمى التواجد وهـذا التواجد المتكلف فمنه مـذموم وهو الـذي يقصد به الريـاء وإظهار الأحـوال الشـريفة مع الإفلاس منها ومنه ما هو محمـود وهو التوصل إلى اسـتدعاء الأحـــوال الشـــريفة واكتســـابها واجتلابها بالحيلة فـــإن للكسب مـــدخلا في جلب الأحـــوال الشريفة ولذلك أمر رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم من لم يحضـره البكـاء في قـراءة القرآن أن يتباكى ويتحازن حديث البكاء عند قراءة القرآن فإن لم تبكوا فتبـاكوا تقـدم في تلاوة القرآن في الباب الثاني فإن هذه الأحوال قد تتكلف مباديها ثم تتحقق أواخرها وكيف لا يكون التكلف سـببا في أن يصـير المتكلف في الآخـرة طبعا وكل من يتعلم القـرآن أو لا يحفظه تكلفا ويقـرؤه تكلفا مع تمـام التأمل وإحضـار الـذهن ثم يصـير ذلك ديـدنا للسـان مطردا حـتى يجـري به لسـانه في الصـلاة وغيرها وهو غافل فيقـرأ تمـام السـورة وتثـوب نفسه إليه بعد انتهائه إلى آخرها ويعلم أنه قرأها في حال غفلته وكـذلك الكـاتب يكتب في الابتداء بجهد شديد ثم تتمرن على الكتابة يـده فيصـير الكتب له طبعا فيكتب أوراقا كثـيرة وهو مسـتغرق القلب بفكر آخر فجميع ما تحتمله النفس والجـوارح من الصـفات لا سـبيل إلى اكتسابه إلا بالتكلف والتصنع أولا ثم يصير بالعادة طبعا وهو المراد بقول بعضهم العادة طبيعة خامسة فكذلك الأحوال الشـريفة لا ينبغي أن يقع اليـأس منها عند فقـدها بل ينبغي أن يتكلف اجتلابها بالسماع وغيره فلقد شـوهد في العـادات من اشـتهى أن يعشق شخصا ولم يكن يعشـقه فلم يـزل يـردد ذكـره على نفسه ويـديم النظر إليه ويقـرر على نفسه الأوصاف المحبوبة والاخلاق المحمودة فيه حتى عشقه ورسخ ذلك في قلبه رسـوخا خـرج عن حداختياره فاشتهى بعد ذلك الخلاص منه فلم يتخلص فكذلك حب الله تعـالى والشـوق إلى لقائه والخوف من سخطه وغير ذلك من الأحوال الشـريفة إذا فقـدها الإنسـان فينبغي أن يتكلف اجتلابها بمجالسة الموصـوفين بها ومشـاهدة أحـوالهم وتحسـين صـفاتهم في النفس وبالجلوس معهم في السماع وبالـدعاء والتضـرع إلى الله تعـالى في أن يرزقه تلك الحلة بأن ييسر له اسبابها ومن أسبابها السماع ومجالسة الصالحين والخائفين والمحسنين والمشـتاقين والخاشـعين فمن جـالس شخصا سـرت إليه صـفاته من حيث لا يـدري ويـدل على إمكان تحصيل الحب وغيره من الأحـوال بالأسـباب قـول رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم في دعائه اللهم ارزقـني حبك وحب من احبك وحب من يقربـني إلى حبك حـديث اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك الحديث تقـدم في الـدعوات فقد فـزع صـلى الله عليه وسلم إلى الـدعاء في طلب الحب فهـذا بيـان انقسـام الوجد إلى مكاشـفات والى أحـوال وانقســامه إلى ما يمكن الافصــاح عنه والى ما لا يمكن وانقســامه إلى المتكلف والى المطبوع فإن قلت فما بال هؤلاء لا يظهر وجدهم عند سـماع القـرآن وهو كلام الله ويظهر

عند الغنـاء وهو كلام الشـعراء فلو كـان ذلك حقا من لطف الله تعـالى ولم يكن بـاطلا من غرور الشيطان لكان القرآن أولى به من الغنـاء فنقـول الوجد الحق هو ما ينشأ من فـرط حب الله تعالى وصدق إرادته والشوق إلى لقائه وذلك يهيج بسماع القرآن أيضا وإنما الذي لا يهيج بسماع القـرآن حب الخلق وعشق المخلـوق ويـدل على ذلك قوله تعـالى ألا بـذكر الله تطمئن القلـوب وقوله تعـالى مثـاني تقشـعر منه جلـود الـذين يخشـون ربهم ثم تلين جلـــودهم وقلـــوبهم إلى ذكر الله وكل ما يوجد عقيب الســـماع في النفس فهو وجد فالطمأنينة والاقشـــعرار والخشـــية ولين القلب كل ذلك وجد وقد قـــال الله تعـــالى إنما المؤمنـون الـذين إذا ذكر الله وجلت قلـوبهم وقـال تعـالى لو أنزلنا هـذا القـرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله فالوجل والخشوع وجد من قبيل الأحوال وإن لم يكن من قبيل المكاشفات ولكن قد يصير سـببا للمكاشـفات والتنبيهـات ولهـذا قـال صـلى الله عليه وسلم زينوا القرآن بأصواتكم حديث زينـوا القـرآن بأصـواتكم تقـدم في تلاوة القـرآن وقال لأبي موسى الأشعري لقد أوتي مزمارا من مزامير آل داود عليه السـلام حـديث لقد أوتي مزمارا من مزامير آل داود قاله لأبي موسى تقدم فيه وأما الحكايـات الدالة على أن أرباب القلوب ظهر عليهم الوجد عند سماع القـرآن فكثـيرة فقوله صـلى الله عليه وسـلم شيبتني هود وأخواتها حديث شيبتني هـود وأخواتها أخرجه الترمـذي من حـديث أبي جحيفة وله وللحاكم من حديث ابن عباس نحـوه قـال الترمـذي حسن وقـال الحـاكم صـحيح على شرط البخاري خبر عن الوجد فإن الشيب يحصل من الحزن والخوف وذلك وجد وروي أن ابن مسعود رضي الله عنه قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سـورة النسـاء فلما انتهى إلى قوله تعالى فكيف إذا جئنا من كل أمة بشـهيد وجئنا بك على هـؤلاء شـهيدا قـال حسبك وكانت عيناه تذرفان بالدموع حديث إن ابن مسـعود قـرأ عليه فلما انتهى إلى قوله فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شـهيدا قـال حسـبك الحـديث متفق عليه من حديثه وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قرأ هـذا الآية أو قـرئ عنـده إن لـدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعـذابا أليما فصـعق حـديث أنه قـرئ عنـده إن لـدينا انكـالا وجحيما وطعــام ذا غصة وعــذابا أليما فصــعق رواه ابن عــدي في الكامل والــبيهقي في الشعب من طريقه من حديث أبي حـرب بن أبي الأسـود مرسلا وفي رواية أنه صـلى الله عليه وسلم قرأ إن تعـذبهم فـإنهم عبـادك فبكى حـديث إنه قـرأ إن تعـذبهم فـإنهم عبـادك فبكى أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو وكـان صـلى الله عليه وسـلم إذا مر بآية رحمة دعا واستبشر حـديث كـان إذا مر بآية رحمة دعا واستبشر تقـدم في تلاوة القـرآن دون قوله واستبشر والاستبشار وجد وقد أثـنى الله تعـالى على أهل الوجد بـالقرآن فقـال تعالى وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفـوا من الحق وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل حـديث أنه كـان يصـلي ولصـدره أزيز كـأزيز المرجل أخرجه أبو داود والنسـائي والترمـذي في الشـمائل من حـديث عبد الله بن الشـخير وقد تقـدم وأما ما نقل من الوجد بـالقرآن عن الصـحابة رضي الله عنهم والتـابعين فكثـير فمنهم من صـعق ومنهم من بكى ومنهم من غشي عليه ومنهم من مات في غشـيته وروى أن زرارة بن أوفى وكـان من التـابعين كـان يؤم الناس بالرقة فقرأ فـإذا نقر في النـاقور فصـعق ومـات في محرابه رحمه الله وسـمع عمر رضي الله عنه رجلا يقرأ إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع فصاح صيحة وخر مغشيا عليه فحمل إلى بيته فلم يزل مريضا في بيته شهرا وأبو جرير من التابعين قرأ عليه صـالح المري فشهق ومات وسمع الشافعي رحمه الله قارئا يقـرأ هـذا يـوم لا ينطقـون ولا يـؤذن لهم فيعتـذرون فغشى عليه وسـمع على بن الفضـيل قارئا يقـرأ يـوم يقـوم النـاس لـرب العالمين فسقط مغشيا عليه فقال الفضيل شكر الله لك ما قد علمه منك وكذلك نقل عن جماعة منهم وكذلك الصوفية فقد كان الشـبلي في مسـجده ليلة من رمضـان وهو يصـلي خلف إمام له فقرأ الإمام ولئن شـئنا لنـذهبن بالـذي أوحينا إليك فزعق الشـبلي زعقة ظن الناس أنه قد طارت روحه واحمر وجهه وارتعدت فرائصه وكـان يقـول بمثل هـذا يخـاطب الأحباب يردد ذلك مرارا وقال الجنيد دخلت على سري السـقطي فـرأيت بين يديه رجلا قد غشى عليه فقال لي هذا رجل قد سمع آية من القرآن فغشى عليه فقلت اقرءوا عليه تلك

الآية بعينها فقرئت فأفـاق فقـال من أين قلت هـذا فقلت رأيت يعقـوب عليه السـلام كـان عمـاه من أجل مخلـوق فبمخلـوق أبصر ولو كـان عمـاه من أجل الحق ما أبصر بمخلـوق فاستحسن ذلك ويشير إلى ما قاله الجنيد قول الشـاعر وكـأس شـربت على لـذة وأخـرى تـداويت منها بها وقـال بعض الصـوفية كنت أقـرأ ليلة هـذه الآية كل نفس ذائقة المـوت فجعلت اردها فإذا هاتف يهتف بي كم تردد هذه الآية فقد قتلت أربعة من الجن ما رفعـوا رءوسهم إلى السماء منذ خلقوا وقال أبو علي المغـازلي للشـبلي ربما تطـرق سـمعي آية من كتاب الله تعالى فتجذبني إلى الإعراض عن الدنيا ثم أرجع إلى أحوالي والى الناس فلا أبقى على ذلك فقال ما طرق سمعك من القرآن فاجتـذبك به إليه فـذلك عطف منه عليك ولطف منه بك وإذا ردك إلى نفسك فهو شـفقة منه عليك فإنه لا يصـلح لك إلا التـبري من الحـول والقـوة في التوجه إليه وسـمع رجل من أهل التصـوف قارئا يقـرأ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضـية مرضـية فاسـتعادها من القـارىء وقـال كم أقـول لها ارجعي وليست ترجع وتواجد وزعق زعقة فخـرجت روحه وسـمع بكر بن معـاذ قارئا يقـرأ وأنـذرهم يـوم الآزفة الآية فاضـطرب ثم صـاح ارحم من أنذرته ولم يقبل إليك بعد الإنـذار بطاعتك ثم غشى عليه وكان إبراهيم ابن أدهم رحمه الله إذا سـمع أحـدا يقـرأ إذا السـماء انشقت اضطربت أوصاله حتى كان يرتعد وعن محمد بن صبيح قال كـان رجل يغتسل في الفرات فمر به رجل على الشاطىء يقرأ وامتـازوا اليـوم أيها المجرمـون فلم يـزل الرجل يضـطرب حـتى غـرق ومـات وذكر أن سـلمان الفارسي أبصر شـابا يقـرأ فـأتى على آية فاقشعر جلده فأحبه سلمان وفقده فسأل عنه فقيل له إنه مريض فأتاه يعوده فإذا هو في الموت فقال يا عبد الله أرأيت تلك القشعريرة التي كانت بي فإنها أتتني في أحسن صورة فـــأخبرتني أن الله قد غفر لي بها كل ذنب وبالجملة لا يخلو صـــاحب القلب عن وجد عند سماع القرآن فإن كان القـرآن لا يـؤثر فيه أصلا ف مثله كمثل الـذي ينعق بما لا يسـمع إلا دعاء ونـداء صم بكم عمي فهم لا يعقلـون بل صـاحب القلب تـؤثر فيه الكلمة من الحكمة يسمعها قال جعفر الخلـدي دخل رجل من أهل خراسـان على الجنيد وعنـده جماعة فقـال للجنيد متى يستوي عند العبد حامده وذامه فقال بعض الشـيوخ إذا دخل البيمارسـتان وقيد بقيدين فقال الجنيد ليس هـذا من شـأنك ثم أقبل على الرجل وقـال إذا تحقق أنه مخلـوق فشـهق الرجل شـهقة ومـات فـإن قلت فـإن كـان سـماع القـرآن مفيـدا للوجد فما بـالهم يجتمعون على سماع الغنـاء من القـوالين دون القـارئين فكـان ينبغي أن يكـون اجتمـاعهم وتواجدهم في حلق القراء لا حلق المغـنين وكـان ينبغي أن يطلب عند كل اجتمـاع في كل دعوة قارىء لأقوال فإن كلام الله تعـالى أفضل من الغنـاء لا محالة فـاعلم أن الغنـاء اشد تهييجا للوجد من القرآن من سبعة أوجه الوجه الأول أن جميع آيات القـرآن لا تناسب حـال المستمع ولا تصلح لفهمه وتنزيله على ما هو ملابس له فمن استولى عليه حـزن أو شـوق أو ندم فمن أين يناسب حاله قوله تعالى يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثـيين وقوله تعالى والذين يرمون المحصنات وكذلك جميع الآيات التي فيها بيان أحكـام المـيراث والطلاق والحـدود وغيرها وإنما المحـرك لما في القلب ما يناسـبه والأبيـات إنما يضـعها الشـعراء إعرابا بها عن أحـوال القلب فلا يحتـاج في فهم الحـال منها إلى تكلف نعم من يستولي عليه حالة غالبة قاهرة لم تبق فيه متسـعا لغيرها ومعه تيقظ وذكـاء ثـاقب يتفطن به للمعاني البعيدة من الألفاظ فقد يخرج وجـده على كل مسـموع كمن يخطر له عند ذكر قوله تعالى يوصيكم الله في أولادكم حالة الموت المحوج إلى الوصية وان كل إنسان لا بد أن يخلف ماله وولـده وهما محبوبـاه من الـدنيا فيـترك أحد المحبـوبين للثـاني ويهجرهما جميعا فيغلب عليه الخـوف والجـزع أو يسـمع ذكر الله في قوله يوصـيكم الله في أولادكم فيـدهش بمجـرد الاسم عما قبله وبعـده أو يخطر له رحمة الله على عبـاده وشـفقته بـأن تولى قسم مواريثهم بنفسه نظرا لهم في حياتهم وموتهم فيقول إذا نظر لاولادنا بعد موتنا فلا نشك بأنه ينظر لنا فيهيج منه حـال الرجـاء ويورثه ذلك استبشـارا وسـرورا أو يخطر له من قوله تعالى للذكر مثل حظ الأنثيين تفضـيل الـذكر بكونه رجلا على الأنـثى وأن الفضل في الآخرة لرجال لا تلهيهم تجـارة ولا بيع عن ذكر الله وأن من ألهـاه غـير الله تعـالى عن الله تعـــالى فهو من الإنـــاث لا من الرجـــال تحقيقا فيخشى أن يحجب أو يـــؤخر في نعيم

الآخـرة كما اخـرت الانـثى في أمـوال الـدنيا فأمثـال هـذا قد يحـرك الوجد ولكن لمن فيه وصـفان أحـدهما حالة غالبة مسـتغرقة قـاهرة والآخر تفطن بليغ وتيقظ بـالغ كامل للتنبيه بالأمور القريبة على المعاني البعيـدة وذلك مما يعز فلأجل ذلك يفـزع إلى الغنـاء الـذي هو ألفاظ مناسبة للأحوال حتى يتسارع هيجانها وروي أن أبا الحسـين النـوري كـان مع جماعة في دعوى فجرى بينهم مسألة في العلم وأبو الحسين ساكت ثم رفع رأسه وأنشــدهم رب ورقاء هتوف في الضحى ذات شجو صدحت في فنن ذكرت إلفا ودهـرا صـالحا وبكت حزنا فهاجت حزني فبكائي ربما أرقها وبكاها ربما أرقني ولقد أشكو فما أفهمها ولقد تشكو فما تفهمني غير أني بالجوى أعرفها وهي أيضا بالجوى تعرفني قال فما بقي أحد من القـوم إلا قام وتواجد ولم يحصل لهم هذا الوجد من العلم الذي خاضوا فيه وإن كان العلم جدا وحقا الوجه الثاني أن القرآن محفوظ للأكثرين ومتكرر على الاسـماع والقلـوب وكلما سـمع أولا عظم أثره في القلوب وفي الكـرة الثانية يضـعف أثـره وفي الثالثة يكـاد يسـقط أثـره ولو كلف صاحب الوجد الغالب أن يحضر وجده على بيت واحد على الدوام في مـرات متقاربة في الزمان في يوم أو اسبوع لم يمكنه ذلك ولو ابدل ببيت آخر لتجـدد له أثر في قلبه وإن كـــان معربا عن عين ذلك المعـــنى ولكن كـــون النظم واللفظ غريبا بالإضـــافة إلى الأولى يحرك النفس وإن كان المعنى واحدا وليس يقدر القـارئ على أن يقـرأ قرآنا غريبا في كل وقت ودعـوة فـإن القـرآن محصـور لا يمكن الزيـادة عليه وكله محفـوظ متكـرر وإلى ما ذكرناه أشار الصديق رضي الله عنه حيث رأى الأعراب يقدمون فيسمعون القرآن ويبكـون فقـــال كنا كما كنتم ولكن قست قلوبنا ولا تظنن أن قلب الصـــديق رضي الله عنه كـــان اقسى من قلوب الاجلاف من العـرب وانه كـان اخلى عن حب الله تعـالى وحب كلامه من قلوبهم ولكن التكرار على قلبه اقتضى المرون عليه وقلة التأثر به لما حصل له من الأنس بكثرة استماعه إذ محال في العادات أن يسمع السامع آية لم يسمعها قبل فيبكي ثم يدوم على بكائه عليها عشـرين سـنة ثم يرددها ويبكي ولا يفـارق الأول الآخر إلا في كونه غريبا جديدا ولكل جديد لذة ولكل طارئ صدمة ومع كل مـألوف أنس ينـاقض الصـدمة ولـذا هم عمر رضي الله عنه أن يمنع الناس من كثرة الطواف وقـال قد خشـيت أن يتهـاون النـاس بهذا البيت أي يأنسوا به ومن قـدم حاجا فـرأى الـبيت أولا بكى وزعق وربما غشي عليه إذ وقع عليه بصره وقد يقيم بمكة شهرا ولا يحس من ذلك في نفسه بأثر فـإذا المغـنى يقـدر على الأبيـات الغريبة في كل وقت ولا يقـدر في كل وقت على أية غريبة الوجه الثـالث أن لـوزن الكلام بـذوق الشـعر تـأثيرا في النفس فليس الصـوت المـوزون الطيب كالصـوت الطيب الـذي ليس بمـوزون وإنما يوجد الـوزن في الشـعر دون الآيـات ولو زحف المغـنى الـبيت الـذي ينشـده أو لحن فيه أو مـال عن حد تلك الطريقة في اللحن لاضـطرب قلب المستمع وبطل جده وسـماعه ونفر طبعه لعـدم المناسـبة وإذا نفر الطبع اضـطرب القلب وتشوش فالوزن إذن مؤثر فلـذلك طـاب الشـعر الوجه الرابع أن الشـعر المـوزون يختلف تأثيره في النفس بالألحان التي تسـمى الطـرق والأسـتانات وإنما اختلاف تلك الطـرق بمد المقصـور وقصر المـدود والوقف في أثنـاء الكلمـات والقطع والوصل في بعضـها وهـذا التصرف جائز في الشعر ولا يجوز في القرآن إلا التلاوة كما أنـزل فقصـره ومـده والوقف والوصل والقطع فيه على خلاف ما تقضـيه التلاوة حـرام أو مكـروه وإذا رتل القـرآن كما أنـزل سـقط عنه الأثر الـذي سـببه وزن الألحـان وهو سـبب مسـتقل بالتـأثير وإن لم يكن مفهوما كما في الأوتار والمزمار والشاهين وسـائر الاصـوات الـتي لا تفهم الوجه الخـامس أن الألحـان الموزونة تعضد وتؤكد بإيقاعـات وأصـوات أخر موزونة خـارج الحلق كالضـرب بالقضيب والدف وغيره لأن الوجد الضعيف لا يستثار إلا بسبب قـوى وإنما يقـوى بمجمـوع هـذه الأسـباب ولكل واحد منها حظ في التـأثير وواجب أن يصـان القـرآن عن مثل هـذه القرائن لأن صورتها عند عامة الخلق صورة اللهو واللعب والقرآن جد كله عند كافة الخلق فلا يجوز أن يمزج بـالحق المحض ما هو لهو عند العامة وصـورته صـورة اللهو عند الخاصة وإن كانوا لا ينظرون إليها من حيث إنها لهو بل ينبغي أن يوقر القرآن فلا يقرأ على شوارع الطرق بل في مجلس ساكن ولا في حال الجنابة ولا على غير طهارة ولا يقدر على الوفـاء بحق حرمة القرآن في كل حال إلا المراقبون لأحوالهم فيعدل إلى الغنـاء الـذي لا يسـتحق

هذه المراقبة والمراعاة ولذلك لا يجوز الضرب بالدف مع قـراءة القـرآن ليلة العـرس وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب الدف في العرس فقـال أظهـروا النكـاح ولو بضرب الغربال حديث الأمر بضرب الدف في العرس تقدم في النكاح أو بلفظ هـذا معنـاه وذلك جائز مع الشعر دون القرآن ولذلك لما دخل رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم بيت الربيع بنت معوذ وعندها جـوار فسـمع إحـداهن تقـول وفينا نـبي يعلم ما في غد على وجه الغناء فقال صلى الله عليه وسلم دعي هذا وقولي ما كنت تقولين حديث دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت الربيع بنت معوذ وعنـدها جـوار يغـنين الحـديث أخرجه البخـاري من حديثها وقد تقدم في النكاح وهذه شهادة بـالنبوة فزجرها عنها وردها إلى الغنـاء الـذي هو لهو لأن هذا جد محض فلا يقرن بصورة اللهو فإذا يتعذر بسببه تقوية الأسـباب الـتي بها يصير السماع محركا للقلب فواجب في الاحترام العدول إلى الغنـاء عن القـرآن كما وجب على تلك الجارية العدول عن شهادة النبوة إلى الغناء الوجه السادس أن المغـني قد يغـني ببيت لا يوافق حال السامع فيكرهه وينهاه عنه ويستدعي غيره فليس كل كلام موافقا لكل حال فلو اجتمعوا في الدعوات على القارئ فربما يقرأ آية لا توافق حالهم إذ القرآن شـفاء للنـاس كلهم على اختلاف الأحـوال فآيـات الرحمة شـفاء الخـائف وآيـات العـذاب شـفاء المغرور الآمن وتفصيل ذلك مما يطول فـإذا لا يـؤمن أن لا يوافق المقـروء الحـال وتكرهه النفس فيتعرض به لخطر كراهة كلام الله تعالى من حيث لا يجد سبيلا إلى دفعه فالاحتراز عن خطر ذلك حـزم بـالغ وحتم واجب إذ لا يجد الخلاص عنه إلا بتنزيله على وفق حاله ولا يجوز تنزيل كلام الله تعالى إلا على ما أراد الله تعالى وأما قول الشاعر فيجوز تنزيله على غير مراده ففيه خطر الكراهة أو خطر التأويل الخطأ لموافقة الحال فيجب توقير كلام الله وصيانته عن ذلك وهذا ما ينقـدح في علل انصـراف الشـيوخ إلى سـماع الغنـاء عن سـماع القـرآن وههنا وجه سـابع ذكـره أبو نصر السـراج الطوسي في الاعتـذار عن ذلك فقـال القرآن كلام الله وصفة من صفاته وهو حق لا تطيقه البشـرية لأنه غـير مخلـوق فلا تطيقه الصـفات المخلوقة ولو كشف للقلـوب ذرة من معنـاه وهيبته لتصـدعت ودهشت وتحـيرت والألحان الطيبة مناسبة للطباع ونسبتها نسبة الحظـوظ لا نسـبة الحقـوق والشـعر نسـبته نسـبة الحظـوظ فـإذا علقت الألحـان والأصـوات بما في الأبيـات من الاشـارات واللطـائف شـاكل بعضـها بعضـاكان أقـرب إلى الحظـوظ وأخف على القلـوب لمشـاكلة المخلـوق المخلـوق فما دامت البشـرية باقية ونحن بصـفاتنا وحظوظنا نتنعم بالنغمـات الشـجية والأصوات الطيبة فانبساطنا لمشاهدة بقاء هذه الحظوظ إلى القصـائد أولى من انبسـاطنا إلى كلام الله تعالى الذي هو صفته وكلامه الذي منه بدأ واليه يعـود وهـذا حاصل المقصـود من كلامه واعتذاره وقد حكى عن أبي الحسن الدراج أنه قال قصـدت يوسف بن الحسـين الرازي من بغداد للزيارة والسـلام عليه فلما دخلت الـري كنت أسـأل عنه فكل من سـألته عنه قال أيش تعمل بذلك الزنديق فضيقوا صدري حتى عزمت على الانصراف ثم قلت في نفسي قد جبت هذا الطريق كله فلا أقل من أن أراه فلم أزل أسأل عنه حـتى دخلت عليه في مسجد وهو قاعد في المحراب وبين يديه رجل وبيده مصحف وهو يقـرأ فـإذا هو شـيخ بهي حسن الوجه واللحية فسـلمت عليه فأقبل علي وقـال من أين أقبلت فقلت من بغـداد فقال وما الذي جاء بك فقلت قصدتك للسلام عليك فقال لو أن في بعض هذه البلدان قال لك إنسان أقم عندنا حتى نشتري لك دارا أو جارية أكان يقعدك ذلك عن المجيء فقلت ما امتحنني الله بشيء من ذلك ولو امتحنني ما كنت ادري كيف أكون ثم قـال لي أتحسن أن تقول شيئا فقلت نعم فقال هات فأنشأت أقول رأيتك تبـني دائما في قطيعـتي ولو كنت ذا حـزم لهـدمت ما تبـني كـأني بكم والليت أفضل قـولكم ألا ليتنا كنا إذ الليت لا يغـني قـال فأطبق المصحف ولم يزل يبكي حـتى ابتلت لحيته وابتل ثوبه حـتى رحمته من كـثرة بكائه ثم قال يا بني تلـوم أهل الـري يقولـون يوسف زنـديق هـذا أنا من صـلاة الغـداة أقـرأ في المصحف لم تقطر من عيني قطـرة وقد قـامت القيامة على لهـذين البيـتين فـإذا القلـوب وإن كانت محترقة في حب الله تعالى فإن البيت الغريب يهيج منها ما لا تهيج تلاوة القرآن وذلك لوزن الشعر ومشاكلته للطباع ولكونه مشاكلا للطبع اقتـدر البشر على نظم الشـعر وأما القرآن فنظمه خارج عن أسـاليب الكلام ومنهاجه وهو لـذلك معجز لا يـدخل في قـوة

البشر لعدم مشاكلته لطبعه وروي أن إسرافيل أستاذ ذي النـون المصـري دخل عليه رجل فرآه وهو ينكت في الأرض بأصبعه ويترنم ببيت فقال هل تحسن أن تترنم بشـيء فقـال لا قـال فـأنت بلا قلب إشـارة إلى أن من له قلب وعـرف طباعه علم أنه تحركه الأبيـات والنغمات تحريكا لا يصـادف في غيرها فيتكلف طريق التحريك إما بصـوت نفسه أو بغـيره وقد ذكرنا حكم المقـام الأول في فهم المسـموع وتنزيله وحكم المقـام الثـاني في الوجد الذي يصادف في القلب فلنذكر الآن أثر الوجد أعني ما يترشح منه إلى الظاهر من صـعقة وبكاء وحركة وتمزيق ثوب وغيره فنقول المقام الثالث من السماع نذكر فيه آداب السماع ظاهرا وباطنا وما يحمد من آثار الوجد وما يذم فأما الآداب فهي خمس جمل الأول مراعاة الزمان والمكان والإخوان قال الجنيد السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فلا تسـمع الزمـان والمكان والإخـوان ومعنـاه أن الاشـتغال به في وقت حضـور طعـام أو خصـام أو صـلاة أو صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه فهذا معنى مراعاة الزمان فـيراعى حالة فراغ القلب له وأما المكان فقد يكون شارعا مطروقا أو موضعا كريه الصـورة أو فيه سبب يشـغل القلب فيجتنب ذلك وأما الإخـوان فسـببه أنه إذا حضر غـير الجنس من منكر السـماع متزهد الظـاهر مفلس من لطـائف القلـوب كـان مسـتثقلا في المجلس واشـتغل القلب به وكذلك إذا حضر متكبر من أهل الدنيا يحتاج إلى مراقبته والى مراعاته أو متكلف متواجد من أهل التصوف يرائي بالوجد والرقص وتمزيق الثياب فكل ذلك مشوشات فترك السماع عند فقد هذه الشـروط أولى ففي هـذه الشـروط نظر للمسـتمع الأدب الثـاني هو نظر الحاضرين أن الشيخ إذا كان حوله مريـدون يضـرهم السـماع فلا ينبغي أن يسـمع في حضورهم فإن سمع فليشغلهم بشـغل آخر والمريد الـذي يستضر بالسـماع أحد ثلاثة أقلهم درجة هو الـذي لم يـدرك من الطريق إلا الأعمـال الظـاهرة ولم يكن له ذوق السـماع فاشـتغاله بالسـماع اشـتغال بما لا يعنيه فإنه ليس من أهل اللهو فيلهو ولا من أهل الـذوق فيتنعم بذوق السـماع فليشـتغل بـذكر أو خدمة وإلا فهو تضـييع لزمانه الثـاني هو الـذي له ذوق السماع ولكن فيه بقية من الحظوظ والالتفات إلى الشهوات والصـفات البشـرية ولم ينكسر بعد انكسارا تؤمن غوائله فربما يهيج السماع منه داعية اللهو والشهوة فيقطع عليه طريقه ويصده عن الاستكمال الثالث أن يكون قد انكسرت شـهوته وأمنت غائلته وانفتحت بصيرته واستولى على قلبه حب الله تعالى ولكنه لم يحكم ظاهر العلم ولم يعـرف أسـماء الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما يستحيل فإذا فتح له باب السماع نزل المسموع في حق الله تعالى على ما يجـوز وما لا يجـوز فيكـون ضـرره من تلك الخـواطر الـتي هي كفر أعظم من نفع السماع قال سهل رحمه الله كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل فلا يصلح السماع لمثل هذا ولا لمن قلبه بعد ملوث بحب الـدنيا وحب المحمـدة والثنـاء ولا لمن يسمع لأجل التلذذ والاسـتطابة بـالطبع فيصـير ذلك عـادة له ويشـغله ذلك عن عبادته ومراعاة قلبه وينقطع عليه طريقه فالسماع مزلة قدم يجب حفظ الضعفاء عنه قال الجنيد رأيت إبليس في النـوم فقلت له هل تظفر من أصـحابنا بشـيء قـال نعم في وقـتين وقت السـماع ووقت النظر فـإني أدخل عليهم به فقـال بعض الشـيوخ لو رأيته أنا لقلت له ما أحمقك من سمع منه إذا سمع ونظر إليه إذا نظر كيف تظفر به فقال الجنيد صدقت الأدب الثـالث أن يكـون مصـغيا إلى ما يقـول القائل حاضر القلب قليل الالتفـات إلى الجـوانب متحرزا عن النظر إلى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من أحوال الوجد مشـتغلا بنفسه ومراعـاة قلبه ومراقبة ما يفتح الله له من رحمته في سـره متحفظا عن حركة تشوش على أصحابه قلوبهم بل يكون ساكن الظاهر هـادئ الأطـراف متحفظا عن التنحنح والتثـاؤب ويجلس مطرقا رأسه كجلوسه في فكر مسـتغرق لقلبه متماسـكا عن التصـفيق والرقص وسائر الحركات على وجه التصنع والتكلف والمراءاة سـاكتا عن النطق في أثنـاء القول بكل ما عنه بد فإن غلبه الوجد وحركه بغير اختيار فهو فيه معـذور غـير ملـوم ومهما رجع إليه الاختيار فليعد إلى هدوئه وسكونه ولا ينبغي أن يستديمه حياء من أن يقـال انقطع وجده على القرب ولا أن يتواجد خوفا من أن يقال هو قاسي القلب عـديم الصـفاء والرقة حكي أن شابا كـان يصـحب الجنيد فكـان إذا سـمع شـيئا من الـذكر يزعق فقـال له الجنيد يوماإن فعلت ذلك مرة أخرى لم تصحبني فكان بعد ذلك يضـبط نفسه حـتى يقطر من كل

شعرة منه قطرة ماء ولا يزعق فحكي أنه اختنق يوما لشدة ضبطه لنفسه فشهق شهقة فانشق قلبه وتلفت نفسه وروي أن موسى عليه السلام قص في بني إسرائيل فمزق واحد منهم ثوبه أو قميصه فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل له مزق لي قلبك ولا تمزق ثوبك قال أبو القاسم النصراباذي لأبي عمرو بن عبيد أنا أقول إذا اجتمع القوم فيكون معهم قوال يقول خيرا لهم من أن يغتابوا فقال أبو عمرو الرياء في السماع وهو أن ترى من نفسك حالا ليست فيك شر من أن تغتاب ثلاثين سنة أو نحو ذلك فإن قلت الأفضل هو الذي لا يحركه السماع ولا يؤثر في ظاهره أو الذي يظهر عليه فاعلم أن عدم الظهور تارة يكون لضعف الوارد من الوجد فهو نقصان وتارة يكون مع قوة الوجد في الباطن لكن لا يظهر لكمال القوة على ضبط الجوارح فهو كمال وتارة يكون لكون حال الوجد ملازما ومصاحبا في الأحوال كلها فلا يتبين للسماع مزيد تأثير وهو غاية الكمال فإن صاحب الوجد في غالب الأحوال لا يدوم وجده فمن هو في وجد دائم ثم فهو المرابط للحق والملازم لعين الشهود فهذا لا تغيره طوارق الأحوال ولا يبعد أن تكون الإشارة بقول الصديق رضي الله عنه كنا كما كنتم ثم قست قلوبنا معناه قويت قلوبنا واشتدت فصارت تطيق ملازمة الوجد في كل الأحوال فنحن في سماع معاني القرآن على الدوام فلا يكون القرآن جديدا في حقنا طارئا علينا حتى نتأثر به فإذا قوة الوجد تحرك وقوة العقل والتماسك تضبط الظاهر وقد يغلب أحدهما الآخر إما الشدة قوته وإما لضعف ما يقابله ويكون النقصان والكمال بحسب ذلك فلا تظنن أن الذي يضطرب بنفسه على الأرض أتم وجدا من الساكن باضطرابه بل رب ساكن أتم وجدا من المضطرب فقد كان الجنيد يتحرك في السماع في بدايته ثم صار لا يتحرك فقيل له في ذلك فقال وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إشارة إلى أن القلب مضطرب جائل في الملكوت والجوارح متأدبة في الظاهر ساكنة وقال أبو الحسن محمد بن أحمد وكان بالبصرة صحبت سهل بن عبد الله ستين سنة فما رأيته تغير عند شيء كان يسمعه من الذكر أو القرآن فلما كان في آخر عمره قرأ رجل بين يديه فاليوم لا يؤخذ منكم فدية الآية فرأيته قد ارتعد وكاد يسقط فلما عاد إلى حاله سألته عن ذلك فقال نعم يا حبيبي قد ضعفنا وكذلك سمع مرة قوله تعالى الملك يومئذ الحق للرحمن فاضطرب فسأله ابن سالم وكان من أصحابه فقال قد ضعفت فقيل له فإن كان هذا من مضعف فما قوة الحال فقال أن لا يرد عليه وارد إلا وهو يلتقيه بقوة حاله فلا تغيره الواردات وإن كانت قوية وسبب القدرة على ضبط الظاهر مع وجود الوجد استواء الأحوال بملازمة الشهود كما حكي عن سهل رحمه الله تعالى أنه قال حالتي قبل الصلاة وبعدها واحدة لأنه كان مراعيا للقلب حاضر الذكر مع الله تعالى في كل حال فكذلك يكون قبل السماع وبعده إذ يكون وجده دائما وعطشه متصلا وشربه مستمرا بحيث لا يؤثر السماع في زيادته كما روي أن ممشاد الدينوري أشرف على جماعة فيهم قوال فسكنوا فقال ارجعوا إلى ما كنتم فيه فلو جمعت ملاهي الدنيا في أذني ما شغل همي ولا شفى بعض ما بي وقال الجنيد رحمه الله تعالى لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم وفضل العلم أتم من فضل الوجد فإن قلت فمثل هذا لم يحضر السماع فاعلم أن من هؤلاء من ترك السماع في كبره وكان لا يحضر إلا نادرا لمساعدة أخ من الإخوان وإدخالا للسرور على قلبه وربما حضر ليعرف القوم كمال قوته فيعلمون أنه ليس الكمال بالوجد الظاهر فيتعلمون منه ضبط الظاهر عن التكلف وإن لم يقدروا على الاقتداء به في صيرورته طبعا لهم وإن اتفق حضورهم مع غير أبناء جنسهم فيكونون معهم بأبدانهم نائين عنهم بقلوبهم وبواطنهم كما يجلسون من غير سماع مع غير جنسهم بأسباب عارضة تقتضى الجلوس معهم وبعضهم نقل عنه ترك السماع ويظن أنه كان سبب تركه استغناءه عن السماع بما ذكرناه وبعضهم كان من الزهاد ولم يكن له حظ روحاني في السماع ولا كان من أهل اللهو فتركه لئلا يكون مشغولا بما لا يعنيه وبعضهم تركه لفقد الإخوان قيل لبعضهم لم لا تسمع فقال ممن ومع من الأدب الرابع أن لا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه ولكن إن رقص أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المراءاة لأن التباكي استجلاب للحزن والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط فكل سرور مباح فيجوز تحريكه ولو كان ذلك حراما

لما نظرت عائشة رضي الله عنها إلى الحبشة مع رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وهم يزفنون حديث نظرت عائشة إلى رقص الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يزفنون تقدم في الباب قبله هذا لفظ عائشة رضي الله عنها في بعض الروايـات وقد روي عن جماعة من الصـحابة رضي الله عنهم أنهم حجلـوا لما ورد عليهم سـرور أوجب ذلك وذلك في قصة ابنة حمزة لما اختصم فيها علي بن أبي طالب وأخـوه جعفر وزيد بن حارثة رضي الله عنهم فتشاحوا في تربيتها فقال صلى الله عليه وسـلم لعلي أنت مـني وأنا منك فحجل علي وقـال لجعفر أشـبهت خلقي وخلقي فحجل وراء حجل علي وقـال لزيد أنت أخونا ومولانا فحجل زيد وراء حجل جعفر ثم قـال صـلى الله عليه وسـلم هي لجعفر لأن خالتها تحته والخالة والدة حـديث اختصم علي وجعفر وزيد بن حارثة في ابنة حمـزة فقـال لعلي أنت مني وأنا منك فحجل وقال لجعفر أشـبهت خلقي وخلقي فحجل وقـال لزيد أنت أخونا ومولانا فحجل الحـديث أخرجه أبو داود من حـديث علي بإسـناد حسن وهو عند البخـاري دون فحجل وفي رواية أنه قـال لعائشة رضي الله عنها أتحـبين أن تنظـري إلى زفن الحبشة والزفن والحجل هو الـرقص وذلك يكـون لفـرح أو شـوق فحكمه حكم مهيجه إن كان فرحه محمودا والرقص يزيـده ويؤكـده فهو محمـود وإن كـان مباحا فهو مبـاح وإن كـان مـذموما فهو مـذموم نعم لا يليق اعتيـاد ذلك بمناصب الأكـابر وأهل القـدوة لأنه في الأكـثر يكـون عن لهو ولعب وماله صـورة اللعب واللهو في أعين النـاس فينبغي أن يجتنبه المقتدى به لئلا يصغر في أعين الناس فيترك الاقتداء به وأما تمزيق الثيـاب فلا رخصة فيه إلا عند خـروج الأمر عن الاختيـار ولا يبعد أن يغلب الوجد بحيث يمـزق ثوبه وهو لا يـدري لغلبة سـكر الوجد عليه أو يـدري ولكن يكـون كالمضـطر الـذي لا يقـدر على ضـبط نفسه وتكـون صـورته صـورة المكـره إذ يكـون له في الحركة أو التمزيق متنفس فيضـطر إليه اضطرار المريض إلى الأنين ولو كلف الصبر عنه لم يقدر عليه مع أنه فعل اختيـاري فليس كل فعل حصوله بالإرادة يقدر الإنسـان على تركه فـالتنفس فعل يحصل بـالإرادة ولو كلف الإنسان أن يمسك النفس ساعة لاضـطر من باطنه إلى أن يختـار التنفس فكـذلك الزعقة وتمزيق الثياب قد يكون كذلك فهذا لا يوصف بالتحريم فقد ذكر عند السـرى حـديث الوجد الحاد الغالب فقال نعم يضرب وجهه بالسـيف وهو لا يـدري فروجع فيه واسـتبعد أن ينتهي إلى هـذا الحد فأصر عليه ولم يرجع ومعنـاه أنه في بعض الأحـوال قد ينتهي إلى هـذا الحد في بعض الأشخاص فإن قلت فما تقـول في تمزيق الصـوفية الثيـاب الجديـدة بعد سـكون الوجد والفراغ من السماع فـإنهم يمزقونها قطعا صـغارا ويفرقونها على القـوم ويسـمونها الخرقة فاعلم أن ذلك مبـاح إذا قطع قطعا مربعة تصـلح لـترقيع الثيـاب والسـجادات فـإن الكرباس يمزق حتى يخاط منه القميص ولا يكـون ذلك تضـييعا لأنه تمزيق لغـرض وكـذلك ترقيع الثيـاب لا يمكن إلا بـالقطع الصـغار وذلك مقصـود والتفرقة على الجميع ليعم ذلك الخير مقصود مبـاح ولكل مالك أن يقطع كرباسه مائة قطعة ويعطيها لمائة مسـكين ولكن ينبغي أن تكون القطع بحيث يمكن أن ينتفع بها في الرقاع وإنما منعنا في السماع التمزيق المفسد للثوب الذي يهلك بعضه بحيث لا يبقى منتفعا به فهو تضييع محض لا يجوز بالاختيار الأدب الخامس موافقه القوم في القيام إذا قـام واحد منهم في وجد صـادق من غـير ريـاء وتكلف أو قام باختيـار من غـير إظهـار وجد وقـامت له الجماعة فلا بد من الموافقة فـذلك من آداب الصحبة وكذلك إن جرت عـادة طائفة بتنحية العمامة على موافقة صـاحب الوجد إذا سقطت عمامته أو خلع الثياب إذا سقط عنه ثوبه بـالتمزيق فالموافقة في هـذه الأمـور من حسن الصـحبة والعشـرة إذا المخالفة موحشة ولكل قـوم رسم ولا بد من مخالقة الناس بأخلاقهم حديث مخالقة النـاس بـأخلاقهم أخرجه الحـاكم من حـديث أبي ذر خـالقوا الناس بأخلاقهم الحديث قال صـحيح على شـرط الشـيخين كما ورد في الخـبر لا سـيما إذا كـانت أخلاقا فيها حسن العشـرة والمجاملة وتطـييب القلب بالمسـاعدة وقـول القائل إن ذلك بدعة لم يكن في الصحابة فليس كل ما يحكم بإباحته منقـولا عن الصـحابة رضي الله عنهم وإنما المحذور ارتكاب بدعة تراغم سـنة مـأثورة ولم ينقل النهي عن شـيء من هـذا والقيام عند الدخول للداخل لم يكن من عادة العـرب بل كـان الصـحابة رضي الله عنهم لا يقومـون لرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم في بعض الأحـوال حـديث كـانوا لا يقومـون

لرســول الله صــلى الله عليه وســلم في بعض الأحــوال كما رواه أنس تقــدم في آداب الصحبة كما رواه أنس رضي الله عنه ولكن إذا لم يثبت فيه نهي عام فلا نــرى به بأسا في البلاد التي جرت العادة فبها بإكرام الـداخل بالقيـام فـإن المقصـود منه الاحـترام والإكـرام وتطـييب القلب به وكـذلك سـائر أنـواع المسـاعدات إذا قصد بها تطـييب القلب واصـطلح عليها جماعة فلا بــأس بمســاعدتهم عليها بل الأحسن المســاعدة إلا فيما ورد فيه نهي لا يقبل التأويل ومن الأدب أن لا يقوم للرقص مع القوم إن كـان يسـتثقل رقصه ولا يشـوش عليهم أحوالهم إذ الرقص من غير إظهار التواجد مباح والمتواجد هو الذي يلوح للجميع منه اثر التكلف ومن يقوم عن صدق لا تستثقله الطباع فقلوب الحاضـرين إذا كـانوا من أربـاب القلوب محك للصدق والتكلف سئل بعضهم عن الوجد الصحيح فقـال صـحته قبـول قلـوب الحاضرين له إذا كانوا أشكالا غير أضداد فإن قلت فما بال الطباع تنفر عن الرقص ويسبق إلى الاوهام أنه باطل ولهو ومخالف للدين فلا يراه ذو جد في الـدين إلا وينكـره فـاعلم أن الجد لا يزيد على جد رســول الله صــلى الله عليه وســلم وقد رأى الحبشة يزفنــون في المسجد وما أنكره لما كـان في وقت لائق به وهو العيد ومن شـخص لائق به وهم الحبشة نعم نفرة الطباع عنه لأنه يرى غالبا مقرونا باللهو واللعب واللهو واللعب مباح ولكن للعوام من الزنـوج والحبشة ومن أشـبههم وهو مكـروه لـذوي المناصب لأنه لا يليق بهم وما كـره لكونه غير لائق بمنصب ذي المنصب فلا يجوز أن يوصف بـالتحريم فمن سـأل فقـيرا شـيئا فأعطاه رغيفا كـان ذلك طاعة مستحسـنة ولو سـأل ملكا فأعطـاه رغيفا أو رغيفين لكـان ذلك منكرا عند الناس كافة ومكتوبا في تواريخ الأخبـار من جملة مسـاويه ويعـير به أعقابه وأشياعه ومع هذا فلا يجـوز أن يقـال ما فعله حـرام لأنه من حيث إنه أعطى خـبزا للفقـير حسن ومن حيث أنه بالإضـافة إلى منصـبه كـالمنع بالإضـافة إلى الفقـير مسـتقبح فكـذلك الراقص وما يجري مجراه من المباحات ومباحات العوام سـيئات الأبـرار وحسـنات الأبـرار سـيئات المقـربين ولكن هـذا من حيث الالتفـات إلى المناصب وأما إذا نظر إليه في نفسه وجب الحكم بأنه هو في نفسه لا تحـــريم فيه والله أعلم فقد خـــرج من جملة التفصـــيل السابق أن السماع قد يكـون حراما محضا وقد يكـون مباحا وقد يكـون مكروها وقد يكـون مستحبا أما الحرام فهو لأكثر الناس من الشبان ومن غلبت عليهم شـهوة الـدنيا فلا يحـرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة وأما المكـروه فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين ولكنه يتخـذه عـادة له في أكـثر الأوقـات على سـبيل اللهو وأما المبــاح فهو لمن لا حظ له منه إلا التلــذذ بالصــوت الحسن وأما المســتحب فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ولم يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة والحمد لله وحــده صلى الله عليه وسلم و على محمد وآله.